عباس بن فرناس
شاعرًا

الدكتور صلاح جرار
قسم اللغة العربية وآدابها - الجامعة الأردنية

مقدمة

عبّاس بن فرناس شخصية اندلسية فذّة امتازت بالنبوغ والميل الى التجريب والابتكار، واثبتت حضورا قويا في ساحات العلم والثقافة والأدب، فطار صيتها في الآفاق، حتى اصبحت معلما بارزا من معالم الحضارة الاسلامية في الأندلس.

ولعل أشدّ ما يصل بين أذهان الدارسين وبين عبّاس بن فرناس، تلك المحاولة الرائدة للطيران التي قام بها، فهي العامل الرئيسي الذي يقف وراء شهرته وذيوع صيته.

ولكن الذاكرة الانسانية، التي حافظت على هذه المساهمة العظيمة لابن فرناس، طوت في ادراج النسيان جوانب اخرى مهمة من سيرته العلمية والأدبية، فقد كان هذا العالم الاسلامي صاحب اختراعات كثيرة وفنون متنوعة وثقافة متشعبة ومواهب مختلفة وادب ونظم.

وتعنى هذه الدراسة بتسليط الضوء على الجانب الأدبي من سيرة ابن فرناس، الذي كان شاعرا متميزا من شعراء البلاط لثلاثة من أمراء بني أميّة في الأندلس.

ولعلّ سطوع نجم ابن فرناس في عهد مبكر من عهود الوجود الإسلامي في الأندلس يشكّل حافزا من حوافز هذه الدراسة ويضفي عليها أهميّة خاصة، لأنّ مراجعة الشعر الأندلسي، في بداياته المبكرة، تساعد على الكشف عمّا طرأ عليه في عصوره اللاحقة من تطور وتجديد، لاسيّما أنّ ما وصلنا من الأدب الأندلسي ومصادره حتى نهاية عهد الإمارة الأموية (٣١٦هـ/٩٢٩م) قليل بالمقارنة مع العصور اللاحقة.

ونظرا الى الصلة الوثيقة بين شعر عبّاس بن فرناس وسيرته وثقافته واختراعاته، فقد تعرّضت الى جميع هذه الجوانب، وخصّصت لها القسم الأول من هذه الدراسة.

ووقفت في القسم الثاني عند شعره من حيث المنزلة التي احتلها الشاعر وشعره، ومن حيث موضوعات ذلك الشعر وخصائصه.

وما توفيقي الاّ بالله

١ ـ سيرتــه

لم تختلف المصادر حول كنية ابن فرناس واسمه ونسبه، ولكن بعض هذه المصادر زاد على بعضها الآخر في تفاصيل الاسم، اما كنيته فهي : ابو القاسم(١)، ومعظم المصادر اكتفت بتسميته عباس بن فرناس(٢)، واضاف بعضها: ابن وَرْداس(٣)، واضاف بعضها الاخر: التاكُرُنّي(٤) واضاف غيرها: المغربي(٥). وعلى ذلك فإن اسمه: ابو القاسم عباس بن فرناس بن وَرْداس التاكُرُنّي المغربيّ. وهو من اعلام

---

(١) وردت هذه الكنية في عدة مصادر منها: الحميدي، ابو عبد الله محمد بن ابي نصر فتوح بن عبد الله الازدي (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس، الدار المصرية للتاليف والترجمة، ١٩٦٦، ص ٣١٨؛ الضبي، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م): بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧، ص ٤٣١؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م): كتاب الوافي بالوفيات، الجزء السادس عشر، باعتناء وداد القاضي، دار النشر: فرانز شتاينر/ فيسبادن، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢، ص ٦٦٧.

(٢) انظر: الزبيدي، ابو بكر محمد بن الحسن الاندلسي (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م): طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٣، ص ٢٦٨؛ ابن حيان، ابو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م): المقتبس من انباء اهل الاندلس، حققه وقدم له الدكتور محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ٢٢٧، ٢٨٣، ٣٣٨: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣١٨؛ الضبي: بغية الملتمس، ص ٤٣١؛ ابن سعيد الاندلسي، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٨م): المُغرب في حُلى المغرب ٢ ج، حققه وعلق عليه: الدكتور شوقي ضيف، طبعة ثانية منقحة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ١/٣٣٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٧ (وفيه: العباس)؛ الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م): البلغة في تراجم ائمة النحو واللغة، حققه: محمد المصري، منشورات مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ١١٩؛ السيوطي، جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٢ ج، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهر، ١٩٦٤، ٢/٢٨؛ المقّري، احمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ/١٦٣٢م): نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ٨ ج، حققه د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ٣/٣٧٤.

(٣) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٨؛ ابن حيان: المقتبس (تحقيق د. محمود مكي) ص ٢٢٧؛ الفيروزابادي: البلغة، ص ١١٩؛ السيوطي: بغية الوعاة، ٢/٢٨

(٤) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٧

ويفهم ممّا اورده ابن سعيد الأندلسي نقلاً عن ابن حيّان انّ ابن فرناس قد مدح الحكم الربضي، وان كنّا لم نقع له على شعر في مدح الحكم، وانه صحبه، وهذا يعني، بالضرورة، ان ابن فرناس كان في ايام الحكم الربضي في سنّ تؤهلهُ صحبة الأمراء ونظم الشعر في مدحهم، واذا كان الحكم قد توفّي سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م فإنّ ذلك يعني انّ ابن فرناس كان قبل سنة ٢٠٦هـ/٨٢٢م في حدود العشرين عاماً من عمره، وينبني على ذلك ان مولد ابن فرناس كان قبل ١٩٠هـ/٨٠٦م.

واذا رجعنا الى كتاب اعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب فانه يطالعنا النصّ التالي في معرض الحديث عن هشام بن عبد الرحمن الداخل (ت ١٨٠هـ/٧٩٦م): «وكانت أيام هشام(١) خير ايام عافية وهدوء، وعدّه ابو محمد بن حزم ثالث ثلاثة من العدول في بني اميّة خاصة، وتوفي لسبع خلون من صفر سنة ١٨٠، وذكروا انه سأل منجّم زمانه، وأظّنه العبّاس بن فرناس، عن مقدار ايام دولته، فاستعفاه من ذلك»(٢).

والناظر في هذا النصّ يلاحظ تحفّظ لسان الدين بن الخطيب في نسبة عباس بن فرناس الى عهد هشام بن الحكم، باستخدام كلمة «وأظنّه»، لأنّ التسليم بمضمون هذه الرواية يعني ان ابن فرناس قد عمّر طويلاً وعاش اكثر من قرن من الزمن، ولو صحّ ذلك لذكرته المصادر، لا سيّما ان ابن فرناس مشهور الى درجة لا يخفى معها خبرٌ كهذا عنه.

ولعلّ السبب الذي جعل ابن الخطيب يظنّ انّ ابن فرناس هو الذي كان

= ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٠، وقد ذكرت عدّة مصادر ان ابن فرناس قد عاش في عصر هذا الأمير (انظر: ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨، الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣١٨، الضبّي: بغية الملتمس، ص ٤٣١، ابن سعيد الأندلسي: المغرب، ١/٣٣٣).

(١) هشام بن عبد الرحمن الداخل، ثاني امراء بني امية في الأندلس ووالد الحكم الربضي، ولي امارة الاندلس عند وفاة والده سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م وحتى سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م (انظر ترجمته في: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/٦١، ابن الأبّار: الحلّة السيراء ١/٤٢، لسان الدين بن الخطيب: اعمال الأعلام، ص ١١.

(٢) لسان الدين بن الخطيب: اعمال الأعلام، ص ١٤

منجّم الأمير هشام بن عبد الرحمن، ان ابن فرناس كان بالفعل منجّماً(١)، وانه كان قريب العهد بعصر الأمير هشام، وهذا يؤكد لنا انّ مولد عبّاس بن فرناس كان قبل سنة ١٩٠هـ/٨٠٦م من غير ان نستبعد انه ادرك عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م.

اما مكان ولادته فلم يذكرها احد ايضاً، غير انّ ابن سعيد الاندلسي ذكر في كتاب المغرب اصله ونسبه قائلاً «وهو مولى بني اميّة وبيته من برابر تاكُرُنّا»(٢).

وقد عُرف عبّاسُ بن فرناس بالذكاء، ولذلك وصفه حُرْقوص(٣) بقوله انه كان بعيد الغور رقيق الذهن له شخص انسيّ وفطنة جنّي(٤) ووصفه الزبيدي في «طبقات النحويين واللغويين» بقوله «وكان من اهل الذكاء والتفحّم على المعاني الدقيقة والصناعة اللطيفة»(٥) ووصفه ابن حيّان صاحب المقتبس بـ «حكيم الاندلس الزائد على جماعتهم بكثرة الأدوات والفنون(٦)» ولقّبه المقّري في «نفح الطيب» بالحكيم(٧) تارة، وبحكيم الأندلس(٨) تارة اخرى.

ولعلّ مصدر هذه الأوصاف، التي اضفاها المؤرخون على ابن فرناس، هو تشعّب معرفته وبحثه في الفلسفة والعلوم وكثرة اختراعاته وكبر سنّه. اما عن المعارف

---

(١) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢، ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣، الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٧.

(٢) ابن سعيد الاندلسي، المغرب ١/٣٣٣. وتاكُرُنّا(Takuronna) في كورة البيرة بجنوب الأندلس وعلى مقربة من مدينة رندة (انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م): معجم البلدان ٥ج، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢/٦ ـ ٧).

(٣) ابو سعيد عثمان بن سعيد الكناني من اهل جيّان، سكن قرطبة، واشتهر بكتابه «طبقات شعراء الأندلس» وتوفي سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م (انظر: ابن الفرضي، ابو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الازدي الحافظ (ت ٤٠٣هـ/١٠١٢م): تاريخ علماء الأندلس ٢ج، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م ١/٣٠٣).

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٧.

(٥) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٨.

(٦) ابن سعيد الأندلسي: المغرب ١/٣٣٣.

(٧) المقري: نفح الطيب، ١/١٦٢.

(٨) نفسه، ٣/٣٧٤

والعلوم التي المّ بها عبّاس بن فرناس فهي كثيرة ومنها:

١ ـ الفلسفة:

فقد ورد في المقتبس ما نصهّ «وجدتُ بخطّ ابي بكر عُبادة الشاعر(١) يأثِرُهُ عن احمد بن فرج البيساري قال: ابدع عبّاس بن فرناس عندنا في فنون التعاليم القديمة والحديثة وفلسف وعرّب في غير ما مذهب من الحكمة»(٢)، وجاء في المغرب في صفة ابن فرناس «وكان فيلسوفاً حاذقاً»(٣) ولكن لم يصلنا من مؤلفاته او آرائه الفلسفية ما يدل على ذلك، اللهم الاّ اذا كانت المصادر التي عرفت به وصفته بالفلسفة لكثرة انشغاله بالعلوم مما يكسبه الحكمة.

٢ ـ الفلك والنجوم:

ذكر حرقوص أن ابن فرناس «كان ابصر الناس بالنجوم واعلمهم بدقائقها واعرفهم بالفلك ومجاريه»(٤) وذكر صاحب المغرب انه كان عالما بالتنجيم(٥). وقد وصف لنا صاحب «نفح الطيب» اختراعاً من اختراعات عباس بن فرناس اشبه ما يكون بالقبّة الفلكيةPlanetarium اذ كانت هذه القبّة مجسّماً للسماء بجميع ما فيها من الظواهر الفلكية والمناخية من نجوم وغيوم وبرق ورعود، فقال «صنع في بيته هيئة

---

(١) هو ابو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد الانصاري المعروف بابن ماء السماء من اهل قرطبة، شاعر مشهور من شعراء الدولة العامرية، وهو من اوائل الوشاحين الاندلسيين، الف كتاباً في اخبار شعراء الاندلس، وتوفي بعد عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م بمدينة مالقة (انظر ترجمته في: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٩٣؛ ابن بسام الشنتريني، ابو الحسن علي بن بسام (ت ٥٤٢هـ/١١٤٨م): الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة (٤ اقسام في ٨ مجلدات)، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، القسم الأول المجلد الأول ص ٤٦٨؛ ابن بشكوال، ابو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م: كتاب الصلة ٢ج، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ٢/٤٥٠؛ الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م): فوات الوفيات والذيل عليها ٥ج، تحقيق: الدكتور احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ٢/١٤٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٢١)

(٢) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي) ص ٢٧٩.

(٣) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٧

(٥) ابن سعيد الأندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

السماء وخيّل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود»(١) وقد وصف الشعراء، ومنهم مؤمن بن سعيد(٢)، هذا الاختراع وسخروا منه. وفي ابيات قالها عبّاس بن فرناس يخاطب بها الأمير محمد بن عبد الرحمن في شأن دفتر فيه تقويم فلكي يقول ابن فرناس:

ولا تنسينّ الدفتر المحكم الذي ... هو الغاية القصوى .....
فيا اسفي ان نال مكنونَ علمه ... سِواكَ من الأملاكِ في غير ذا العصر
وزدْني من الإدناء ما قد وعدتني ... فوعدك مضمونٌ الى حِجَجٍ عشْرِ
فليس محالاً ان احسل محلّةً ... أُضِيفَ لها قبلي المضافُ الى شِمْرِ(٣)
لقد كان مَنْ في رحمة الله(٤) همّ بي ... لهذا وما صار ابنُ شمرٍ الى القبْرِ

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤

(٢) ابو مروان مؤمن بن سعيد بن ابراهيم بن قيس القرطبي من شعراء الأمير محمد بن عبد الرحمن، كان كثير المهاجاة مع شعراء عصره، وخاصة عباس بن فرناس، وكان يهاجي ثمانية عشر شاعرا، ووصفه صاحب الجذوة بأنه شاعر مشهور كثير الشعر، وتوفي سنة ٢٦٧هـ/٨٨٠م، (انظر ترجمته في: الثعالبي، ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م): يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ٥ج، شرح وتحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ٢/٢٣، الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣٥٢؛ ابن سعيد الأندلسي: المغرب، ١/١٣٢ ، واورد له ابن حيان في المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي) شعرا واخبارا في صفحات متفرقة، كما اورد له الكتاني في كتاب التشبيهات مقطوعات كثيرة في صفحات متفرقة، وله اخبار واشعار في نفح الطيب للمقّري.

(٣) يشير الى الشاعر ابي محمد عبد الله بن الشمر بن نمير القرطبي، منجم الأمير عبد الرحمن بن الحكم ونديمه، وكان شاعرا، جعله الحجاري رئيس المنجمين بالأندلس، واصله من وشقة (انظر ترجمته في: ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ١/٢٢٨؛ ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٦٥، ٦٦، ٢٨٢؛ ابن سعيد الأندلسي: المغرب، ١/١٢٤ - ١٢٧، واورد الكتاني شعراً في كتاب التشبيهات، انظر: الكتاني، ابو عبد الله محمد بن الكتاني الطيب (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م): التشبيهات من اشعار اهل الأندلس، تحقيق: الدكتور احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦، ص ١٠١، ١٧١).

(٤) يشير الى الأمير عبد الرحمن الأوسط.

فاعرض عنه محمد ولم يسعفه(١).

ويعلّق الدكتور محمود مكّي، في حاشية كتاب المقتبس(٢) من تحقيقه، على هذه الأبيات بقوله: «يبدو من الأبيات وممّا بقي من التقديم لها أنّ ابن حيّان يورد هنا خبراً عن عبّاس بن فرناس مع الأمير محمد حول دفتر كان الأمير يحتفظ به، ويظهر أنّ هذا الدفتر كان تقويماً فلكيّاً استعان به من قبل شاعر الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام: عبد الله او عبد الرحمن بن الشمر، ولهذا فإننا نرى عبّاس بن فرناس يلحّ على الأمير في أن ينزل له عن ذلك الدفتر أو يسمح له بالاطلاع عليه، اذ ليس من المستحيل فيما يقول الشاعر أن يبلغ من المنزلة لدى محمد ما بلغه ابن الشمر من قبل لدى أبيه عبدالرحمن، ولا شكّ في أنه يعني بذلك ما كان ابن الشمر مقبلاً عليه من الاشتغال بالفلك، بل انّه يذكر في آخر الأبيات أنّ أباه ـ أي أبا الأمير محمد ـ عبد الرحمن كان يهتم بإدناء عبّاس بن فرناس لبراعته في علم النجوم وابن الشمر ما زال بعد على قيد الحياة».

٣ ـ النحو واللغة:

كان عبّاس بن فرناس من علماء النحو واللغة، ولذلك نجد الزبيدي يجعله في الطبقة الثالثة من النحويين واللغويين في الاندلس(٣) وهي بلا شكّ طبقة متقدمة، وقال عنه الزبيدي انه «كان متصّرفاً في ضروب من الآداب»(٤)، وفي بغية الوعاة للسيوطي نقلاً عن الزبيدي أنه كان متصرّفاً في ضروب من الإعراب(٥) ومع أنه لم يصلنا من آثار ابن فرناس ما يشهد على مكانته في علم النحو واللغة إلا ان الباحث يستطيع أن يلمح الثقافة النحوية باديةً فيما وصلنا من شعره.

٤ ـ العروض:

ورد في كتاب «طبقات النحويين واللغويين» نصٌّ يتحدث عن انشغال عبّاس

---

(١) ابن حيان: المقتبس (تحقيق د. محمود مكي)، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.
(٢) نفسه، ص ٢٨١.
(٣) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٨؛ الفيروز آبادي: البلغة، ص ١١٩.
(٤) نفسه، ص ٢٦٨.
(٥) السيوطي: بغية الوعاة، ٢/٢٨.

ابن فرناس بالعروض، وفحوى هذا النصّ: «وأخبرني محمد بن عمر بن عبدالعزيز قال: أخبرني ابن لبابة قال: جلب بعضُ التجار كتاب المثال من العروض للخليل(١)، فصار إلى الأمير عبدالرحمن(٢)، فأخبرني أبو الفرج الفتى ـ وكان من خيار فتيانهم(٣) ـ قال: كان ذلك الكتاب يُتلاهى به في القصر، حتى إنّ بعض الجواري كان يقول لبعض: صيّر الله عقلك كعقل الذي ملأ كتابه من «مَمَا، مَمَا» فبلغ الخبرُ ابنَ فرناس، فرفع إلى الأمير يسأله إخراج الكتاب إليه، ففعل، فأدرك منه علم العروض، وقال: هذا كتابٌ قبله ما يفسّره، فوجّه به الأميرُ إلى المشرق في ذلك، فأتي بكتاب الفرش، فوصله بثلاثمائة دينار وكساه»(٤).

ويفهم من نصّ هذه الرواية أن ابن فرناس هو الوحيد الذي استطاع أن يفهم ما يشتمل عليه كتاب الخليل، وأنّه كان ملمّاً بالعروض إلماماً جعله يدرك أنّ هناك كتاباً آخر يفسّر ما في كتاب الخليل، ولذا أرسله السلطان إلى المشرق في سبيل ذلك، ورجع ومعه كتاب الفرش، وأنّ السلطان كافأه على ذلك وكساه. ولهذا السبب قال حرقوص عن عبّاس بن فرناس «إنه أول من فكّ في بلادنا(٥) العروض، وفتح مقفله، وأوضح للناس ملتبسه»(٦)، كما أشار عددٌ من المصادر إلى أنّ ابن فرناس هو «أوّل من فكّ بها (الأندلس) كتاب العروض للخليل»(٧).

٥ ـ علم الموسيقى:

ليس من المستغرب أن نجد ابن فرناس عالماً بالموسيقى والألحان، فقربه من القصر ومجالسته للسلطان في مجالس الغناء والسماع، وانشغاله بالعروض، كلّ ذلك

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي.

(٢) الأمير عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الأوسط).

(٣) فتيان قصر الإمارة الأموية المعروفون بالصقالبة.

(٤) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٥) الأندلس.

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/ ٦٦٧.

(٧) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣؛ المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤؛ وانظر أيضاً: شلبي، الدكتور سعد اسماعيل: الأصول الفنية للشعر الاندلسي (عصر الامارة)، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

يؤهله للانصراف إلى هذا العلم، فعندما تحدّث الزبيدي عن دور عبّاس بن فرناس في فكّ معاني كتاب العروض للخليل زاد قائلاً «وكان مع ذلك يحسن علم الموسيقى»(١). وبالنظر إلى اتصال علم الموسيقى بعلم العروض وانشغال ابن فرناس بكليهما، وصفه صاحب النفح بأنه «أوّل من فكّ الموسيقى»(٢).

ولعلّ من مصادر عناية عباس بن فرناس بالعروض والموسيقى أنه أدرك النهضة التي تزعمها زرياب(٣)، في الغناء والموسيقى في الاندلس، وانه كان يشهد مجالس الموسيقى والغناء التي كان يحييها زرياب وأبناؤه(٤)، وأنّ ابن فرناس كان «يصنع للأمير محمد بن عبد الرحمن قطعاً من رقيق الأشعار تنتظم بمدحه وتصوغ قيانه فيها الألحان فيغنينه بها فيجزل عليها صلته»(٥) ولذلك كان من الطبيعي لابن فرناس أن يعرف اصول الموسيقى والألحان والغناء.

٦ ـ الشعر: وهو موضوع هذه الدراسة.

ولئن كنّا نفتقر إلى ما يصلنا بالمساهمات العلمية لعباس بن فرناس التي ذكرت المصادر أنه اختصّ بها، الاّ اننا نلمس صدى هذه المساهمات في شعره الذي صدر عنه وسلم بعضه القليل من عاديات الزمن. وسوف نبيّن ذلك عند حديثنا عن شعره، بعون الله.

أما اختراعات عباس بن فرناس ومساهماته العلمية على الصعيد التطبيقي فهي كثيرة ومتنوعة أيضاً، وهي كفيلة مع معارفه المتنوعة ان تجعل منه شخصية فذة قلّ ان

---

(١) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٩.

(٢) المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤.

(٣) هو ابو الحسن علي بن نافع، مغنّ بغدادي شهير، كان مولى للخليفة المهدي في بغداد، ثم قدم الى الاندلس في أواخر أيام الحكم بن هشام، ولما مات الحكم سنة ٢٠٦ هـ همّ زرياب بالرجوع الى بغداد، الاّ أن خليفته عبد الرحمن بن الحكم استبقاه ورحب به ورعاه، وذاع صيت زرياب في عالم الموسيقى والغناء. وتوفي سنة ٢٣٨ هـ قبل وفاة الأمير عبدالرحمن بن الحكم بأربعين يوماً، وصلّى عليه الأمير (انظر: ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٨٧، ٢١٩؛ المقّري: نفح الطيب، ٣/١٢٢ ـ ١٣٣).

(٤) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٩؛ ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي) ص ٢٧٩ ـ ٢٨١؛ المقّري: نفح الطيب، ٣/١٣٣.

(٥) ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

نجد لها نظيراً في تاريخ الحضارة الاسلامية في تلك الازمنة المتقدمة، وقد اشار غير مصدر الى تنوع هذه المساهمات والاختراعات، فمن ذلك ما قاله حرقوص مشيرا الى ابن فرناس: «وكان متفلسفاً في غير ما جنس من الصناعات»(١) ووصفه ابن حيان بـ «حكيم الاندلس الزائد على جماعتهم بكثرة الادوات والفنون»(٢) وقال عنه صاحب المغرب بأنه كان «صاحب نيرنجات كثير الاختراع والتوليد واسع الحيل»(٣) كما استشهد به صاحب النفح على ذكاء الاندلسيين واستخراجهم العلوم واستنباطها، وسمّاه حكيم الاندلس(٤) وقد تناول الدارسون المحدثون هذا الجانب العلمي من سيرة ابن فرناس بدراسات عدة(٥)، ولذلك لا أجد ضرورة الى اطالة الوقوف عند هذه المساهمات الحضارية وسوف اقتصر على ذكر هذه المساهمات وتوثيقها من مصادرها العربية، وذلك لما لها من صلة بيّنة بشعر ابن فرناس مما سنبيّنه لاحقاً باذن الله. وأهم هذه المساهمات والاختراعات ما يلي:

١ ـ تجربة الطيران:

وهي التجربة التي تقف وراء شهرة ابن فرناس في الآفاق، فقد جاء في «المغرب» انه «احتال في تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش على سرق الحرير، فتهيأ له

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٧.

(٢) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣.

(٣) نفسه، ١/٣٣٣.

(٤) المقري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤.

(٥) من هذه الدراسات: الأوسي، الدكتور حكمة علي: مظهران من مظاهر الأصالة في الفكر العربي، دراسة عرضها في مؤتمر الحضارة الأندلسية الذي عقد في القاهرة في شهر آذار، ١٩٨٥م، وخص فيها ابداعات عباس بن فرناس بالنصيب الوافر والمعالجة العلمية الدقيقة؛ ومنها دراسة لمحمد عبدالله عنان في كتابه «تراجم اسلامية شرقية واندلسية» بعنوان عبّاس بن فرناس عبقرية علمية أدبية فذّة (انظر: عنان، محمد عبدالله: تراجم اسلامية شرقية واندلسية، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م، ص ٢٦٦ ـ ٢٧٠؛ ومنها بحث لإلياس تيريس Elias Teris Sadaba بعنوان: عباس بن فرناس، نشره في مجلة الاندلس، المجلد ٢٥، السنة ١٩٦٠م، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٩؛ وكتب ليفي بروفنسال E.L'evi - Provencal مادة بعنوان عبّاس بن فرناس Abbas B. Firnas في الموسوعة الاسلامية (Vol. 1, New ed.)؛ وهنالك مقالة لبلاشير عن ابن فرناس منشورة في مجلة Hesperis، المجلد ١٠، السنة ١٩٣٠، ص ١٥ ـ ٣٦.

انه استطار في الجو من ناحية الرصافة(١) واستقل في الهواء، فحلّق فيه حتى وقع على مسافة بعيدة»(٢)

ونقع في «نفح الطيب» على نصّ مماثل عن ابن فرناس يقول: «واحتال في تطيير جثمانه، وكسا نفسه الريش، ومدّ له جناحين، وطار في الجوّ مسافة بعيدة، ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه، فتأذّى في مؤخره، ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكه، ولم يعمل له ذنباً»(٣).

وعلى إثر هذه المحاولة سخر منه خصمه مؤمن بن سعيد بقوله(٤):

يطمُّ على العنقاء في طيرانها اذا ما كسا جثمانَه ريشَ قَشْعَمِ

وتبع ابن فرناس في محاولة الطيران عددٌ من المغامرين العرب والاوروبيين(٥) فقد اجمعت المصادر التي ترجمت لاسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م)، صاحب معجم الصحاح، انه بعد ان صنف معجمه، مضى الى الجامع القديم في نيسابور، وقيل الى داره، فصعد السطح، ونادى قائلاً: «أيّها الناس إني قد عملت في الدنيا شيئاً لم أسبق اليه فسأعمل للآخرة أمراً لم أسبق اليه» وضمّ جنبيه الى مصراعي باب، وتأبطهما بحبل، وزعم أنه يطير، فوقع فمات. ولذلك اتهمته المصادر بأنه اعتراه اختلاط ووسواس(٦).

---

(١) ربضٌ من أرباض قرطبة. انظر: الحميري، محمد بن عبدالمنعم: كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار، حققه الدكتور احسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥، ص ٢٦٩.

(٢) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣.

(٣) المقري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤.

(٤) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣؛ المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤.

(٥) انظر: الجراري، عبدالله بن العبّاس: تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوروبا، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م، ص ١٧٤ ـ ١٨٠.

(٦) ابن الأنباري، ابو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧هـ/١١٨١م): نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، قام بتحقيقه: الدكتور ابراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣، القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٢٤هـ/١٢٢٦م): إنباه الرواة على أنباه النحاة ٤ج، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي/ القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية / بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ١/٢٣١؛ الفيروز آبادي: البلغة، ص ٦٧؛ السيوطي: بغية الوعاة، ١/٤٤٧.

٢ ـ القبة الفلكية:

لقد ترجم عباس بن فرناس شغفه بعلم الفلك الى عدة صناعات متصلة بهذا العلم، وكان من ابرز هذه الصناعات اقامته لقبة فلكية تمثل السماء بنجومها وغيومها ورعودها وبروقها، ولذلك قال عنه صاحب «نفح الطيب» انه «صنع في بيته هيئة السماء وخيّل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود»(١).

ويبدو أن هذه القبّة كانت كبيرة الحجم الى الدرجة التي تسمح للمرء أن يجلس تحتها ويشاهد الظواهر الفلكية، ويظهر انه كان يستخدم تقنية خاصة لهذا الاختراع من اجل اصدار اصوات كالرعد ومن اجل التلوين في الاضاءة التي تمثل البرق ولمعان الكواكب، ولهذا نجد الشاعر مؤمن بن سعيد يجلس تحت تلك القبة ويخرج بعد ذلك قائلاً: (٢)

قعدتُ تحتَ سماءٍ لابن فرناس ... فخلتُ أن رحىً دارت على راسي

وقال أيضاً: (٤)

سماءُ عبّاس الأديب أبي الـ ... ـقاسم ناهيك حسنُ رائقها
أما صراط استه فراعدها ... فليت شعري ما لمعُ بارقها
لقد تمنّيتُ حين دوّمها ... فِكْريَ بالبصْقِ في آستِ خالقِها

ويفهم من وصف مؤمن بن سعيد لهذه القبة، وان كان وصفاً ساخراً، أنه كان يخرج منها صوتٌ يمثل الرعد وانّ هذا الصوت يصدر عن آلة تعمل كالرحى.

٣ ـ المنقانة (أو المنجانة او الميقاتة):

وهي آلة فلكية أيضاً صنعها عباس بن فرناس لمعرفة الأوقات(٤)، وفي نفح الطيب أنه صنعها «على غير رسم ومثال»(٥) أي أنه لم يحتذ في صناعتها أية محاولة

---

(١) المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤.
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٨.
(٣) المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤.
(٤) ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣؛ ابن سعيد الأندلسي: المغرب، ١/٣٣٣؛ المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤.
(٥) المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤.

سابقة. وتذكر المصادر انه بعد أن احكم صنعها رفعها للأمير محمد بن عبد الرحمن ونقش عليها أبياتاً(١).

٤ ـ ذات الحَلَق:

وهي آلة فلكية اخرى تتكون من عدة حلقات متداخلة في وسطها كرة معلقة تمثل حركة الكواكب السماوية(٢)، وذكر ابن حيّان في المقتبس ان ابن فرناس عمل هذه الآلة قبل المنقانة وأنه رفعها للأمير عبد الرحمن الأوسط(٣).

واعتمد الاستاذ محمد عبد الله عنان، في حديثه عن هذه الآلة، على مخطوطة من تاريخ ابن حيان ذكر انه حصل على صورة عنها من مكتبة جامع القرويين بفاس، فذكر هذه الآلة وصفتها، واورد أبياتاً كتبها عباس بن فرناس مرفقة بذات الحلق عندما رفعها الى الأمير عبدالرحمن الاوسط(٤)

٥ ـ صناعة الزجاج:

ذكرت المصادر ان ابن فرناس كان أول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة(٥).

٦ ـ صناعة التماثيل:

يلاحظ المتتبع للنصوص التراثية التي تتحدث عن صناعة ابن فرناس للتماثيل والتحف ان هذا العالم كان مهندساً متمكناً من فنّه. اذ كان يضع التصاميم للتماثيل والطرف العجيبة، ويستعين، في تنفيذ هذه التصاميم، بالمهندسين والنجارين، وفي

---

(١) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣؛ ابن سعيد الأندلسي: المغرب، ١/٣٣٣.

(٢) عنان: تراجم اسلامية، ص ٢٦٧

(٣) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٣.

(٤) عنان: تراجم اسلامية، ص ٢٦٧.

(٥) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣؛ المقري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤.

ذلك اورد ابن حيان الاندلسي النص التالي: «قال الحسن بن محمد بن مفرّج(١): كان عباس بن فرناس الحكيم الشاعر لا تزال تفره قريحته الحكمية يخترع الطرف الملوكية ويولّد الطرف المعجبة ذوات الصور الجميلة والحركات البديعة بتلونها وافراغ المياه منها في البرك وغيرها، ويستعين في اقامة اشخاصها ومعالجة هندستها بأصبغ عريف النجارين في القصر، يعلّمه عملها. . . . بصنعتها فاذا تمت ونظر اليها الامير محمد أعجب بها وسرّه. . . . عباس مخترعها فأثابه على ذلك بما. . . . أصبغ من اموالنا وهباتنا في هذا الوجه فيعطاه فرناس مضاعفاً لاغفالنا أمره»(٢).

٧ ـ الغناء وضرب العود ووضع الألحان:

لم يقف ابن فرناس عند حد العلم بالعروض والموسيقى وحضور مجالس الغناء ونظم الاشعار التي تلحنها جواري الأمراء وتغنيها، بل نقع على روايات كثيرة تدل على انه كانت له مشاركة في العزف والتلحين والغناء. فقد جاء في كتاب «طبقات النحويين واللغويين» أنه كان «يحسن علم الموسيقى ويضرب العود ويغني عليه»(٣). ومما نقله ابن حيان في كتاب المقتبس عن ابي بكر عبادة الشاعر يأثره عن احمد بن فرج البياساري ان ابن فرناس «حذق الموسيقى إلى عانى ضرب العود وصوغ الألحان»(٤). ومن الروايات التي تنص على مشاركة عباس بن فرناس في الغناء والعزف، ما ذكرته المصادر عن احد مجالس الغناء التي اقامها محمود بن ابي جميل الذي كان عاملاً على شذونة(٥) في أخريات ايام الامير عبدالرحمن الاوسط، ففي هذا

---

(١) هو ابو بكر الحسن بن محمد بن مفرّج بن حماد بن الحسين المعافري، يعرف بالقبشي، من أهل قرطبة، جمع كتاباً سماه «كتاب الاحتفال في تاريخ اعلام الرجال في أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء، نقل عنه ابن بشكوال في الصلة وابن حيان في المقتبس. ولد ابو بكر سنة ٣٤٨هـ/٩٥٩م، وتوفي بعد سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٩م. (انظر: ابن بشكوال، ابو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م): كتاب الصلة ٢ ج، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ١/١٣٦ ـ ١٣٧).

(٢) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٣) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٩.

(٤) ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٧٩.

(٥) بالاسبانية Sidona، وتقع شرق قادس على الساحل الجنوبي الغربي للأندلس (انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ٣٣٩).

المجلس قام احد أبناء زرياب(١) يغني: (٢)

ولـو لم يَشُقْني الظاعنـون لشـاقني حمـامٌ تـداعت في الـديـارِ وقـوع
تـداعينْ فـاستبكينَ من كـان ذا هوىً نـوائـحَ مـا تجـري لهـنّ دمـوعُ

فعجب الحاضرون من غنائه واستعـادوه، فلما تقضىّ غناؤه مـدّ عباس بن فرناس يده الى العود فأخذه وغنىّ البيتين ووصلهما من عنده بديهة:

شـددْتُ بمحمـودٍ يـداً حـين خـانها زمـانٌ لأسبـاب الـرجـاءِ قَـطُوعُ
بنى لمـساعي الجـود والمجـد قبّـةً إليهـا جميـعُ الأجـودين رُكـوعُ(٣)

وقد بلغ من إكثار عباس بن فرناس المشاركة في الغناء والضرب على العود ان سعى ليصبح مغنياً عند الأمير محمد بن عبد الرحمن، فكتب الى الأمير محمد ينجح بذلك عنده ويسأله أن يوصله الى نفسه ويسمع غناءه، ففعل، واحضره مجلس أنسه في خاصّته، فجاء بعود معه، وانتهت النوبة إليه، فغّناه بشعره الذي أوّله:

الجـهـل لـيـلٌ لـيس فـيـه نـور والـعـلمُ فـجـرٌ نـورُهُ مـشـهـورُ

فلم يهتز الأميرُ، واستمع لنوبةٍ أخرى منه قليلة، فلم يتحرّك لها، فاستكره أن يستزيده، واستحى منه على ذلك، فأمر له بجائزة ثم لم يوصلْه بعد(٤).

ويظهر أن إخفاق ابن فرناس في الغناء للأمير جعله يقتصر على نظم الأشعار الرقيقة في مدحه لكي تصوغ قيانه فيها الألحان ويغنينه بها، وكان الأمير يجزل صلته على هذه الاشعار(٥).

٨ ـ السحر والتنجيم:

فقـد ذكر صـاحب المغرب أن ابن فـرناس قـد نُسِبَ اليه السحرُ وعمـلُ

---

(١) ذكر المقري في نفح الطيب (١٣٣/٣) ان الذي غنّى هو زرياب نفسه.
(٢) هذان البيتان من شعر ذي الرمّة.
(٣) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٩، المقري: نفح الطيب، ١٣٣/٣
(٤) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٧٩ ـ ٢٨١.
(٥) نفسه، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٧، وقد اورد ابن حيان بعض هذه المقطوعات

الكيمياء(١).

وبسبب انشغال عبّاس بن فرناس بهذه الاختراعات والعلوم فقد «كثر» عليه الطعن في دينه»(٢) واتهم بالزندقة وكثر خصومه ومنتقدوه، اذ كان العمل في بعض هذه الاختراعات مدخلاً الى وصمه بالزندقة، ففي محاولته للطيران مثلاً يمكن اتهام ابن فرناس بأنه حاول الصعود الى السماء، وقد سخر منه معاصره مؤمن بن سعيد، حيث قال فيه مشيراً الى محاولة الطيران(٣):

يطمُّ على العنقاء في طيرانها اذا ما كسا جثمانَه ريشَ قشعم

وفي صنعه للقبة الفلكية التي اشبهت السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها اتهم ابن فرناس بأنه أراد تقليد الخالق في سمائه، ولذلك سخر منه مؤمن ابن سعيد ثانية بقوله(٤):

سماءُ عبّاس الأديب أبي الـ قاسم ناهيك حسنُ رائقها
أما ضراطُ استه فراعدُها فليت شعري ما لمع بارقها
لقد تمنّيْتُ حين دوّمها فكريَ بالبصقِ في است خالقها

وكلمة «خالقها» إشارة الى عباس بن فرناس، وفي ذلك ادانة واضحة له، ودليل على اتهامه بأنه، في بنائه القبة الفلكية على هيئة السماء، أراد أن يكون خالقاً، مع أنه لا خالق الاّ الله.

ومن ناحية ثانية ربط ابن سعيد الاندلسي بين نسبة ابن فرناس الى السحر والكيمياء وبين الطعن عليه في دينه حيث يقول «انه كان واسع الحيل حتى نُسبَ اليه السحرُ وعمل الكيمياء وكثر عليه الطعنُ في دينه»(٥)، فكيف إذا اجتمع ذلك كلّه مع

---

(١) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣
(٢) نفسه، ١/٣٣٣
(٣) نفسه، ١/٣٣٣؛ المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤
(٤) المقّري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤
(٥) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

الغناء والموسيقى وصناعة التماثيل وغير ذلك مما ينظر اليه الفقهاء بغير ارتياح(١). غير ان اتهام عباس بن فرناس بالزندقة قد يكون مرده، بالاضافة الى ما ذكرنا، الى خصوماته مع معاصريه من الأدباء والعلماء وتحاسده معهم، وكان اشهر خصومه الشاعر مؤمن بن سعيد الذي لم يدع مناسبة يهجو بها ابن فرناس ويسخر منه وينتقده إلاّ تعرّض له بها، ولذلك يقول ابن حيان في وصف عباس بن فرناس بأنه «قرنُ مؤمن ومناصبهُ في التهاجي»(٢). وعندما ذكر مؤمن بن سعيد وصفه بقوله: «ندّ عبّاس ورسيله»(٣).وقد اشار صاحب المغرب الى ما بين الشاعرين من المهاجاة، فقال مشيراً الى عباس بن فرناس: «ونشأ بينه وبين مؤمن بن سعيد مهاجاة، فافحش الاثنان»(٤). ومن الحكايات التي توردها المصادر الاندلسية عن علاقة ابن فرناس بمؤمن بن سعيد ما ذكره حرقوص قال «دسّ عليه مؤمن حدثاً كان يصحبه يقال له طلحة، فأتاه فقال له: يا أبا القاسم! إنك جنيت عليّ جناية. فقال: وما هي؟ فقال: إني جنبتُ بك الليلة، فأعطني سطلاً ومنديلاً أدخل بهما الحمّام. فقال: لا جزى الله مؤمناً خيراً فهو الذي عوّدك إتيان المشايخ في اليقظة حتى صرت تجنب عليهم في النوم»(٥).

وفي حكاية أخرى قال حرقوص: «وبصر (عباس بن فرناس) بمؤمن يوماً وقد ألقى على رأسه رداءً فعرفه وناداه: أبا مروان! أبا مروان! من خلفه، فاستجاب له ثم قال له: يا أبا القاسم! من أين عرفتني ولم تر وجهي وانما رأيت قفاي؟!

---

(١) انظر على سبيل المثال: ابن حزم الأندلسي، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م): رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور، حققها ونشرها الدكتور احسان عبّاس ضمن رسائل ابن حزم، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٨٠، ص ٤١٩ ـ ٤٣٩؛ وانظر: ابن الدراج السبتي: كتاب الامتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع، دراسة واعداد: الدكتور محمد بن شقرون، الرباط.

(٢) ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ١٢٤

(٣) نفسه، ص ٣٠١

(٤) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٧

فقال: انا اعرف بك من ورائك(١).

ولمؤمن بن سعيد شعرٌ في السخرية من اختراعات عبّاس بن فرناس واتهامه بالزندقة ذكرناه سابقاً.

ولمؤمن انتقادات لشعر عباس بن فرناس، فعندما أنشد الأخير الأمير محمداً من أبيات:

رأيتُ أمير المؤمنين محمّداً وفي وجهه بذر المحبّة يُثْمِرُ

قال مؤمن بن سعيد: قبحاً لما ارتكبته، جعلتَ وجه الخليفة محرثاً يثمر فيه البذر، فخجل وسبّه(٢).

ولعباس بن فرناس شعرٌ في هجاء مؤمن، نحو قوله(٣):

ترى أثر الأعراد في جُحْر مؤمنٍ كآثار قُضْبٍ في رمادٍ مغربلِ

وعندما انتقد مؤمن القبة الفلكية التي انشأها عباس بن فرناس بقوله:

قعدتُ تحت سماءٍ لابن فرناسِ فخلتُ أنّ رحىً دارت على راسي

ردّ عليه ابن فرناس بقوله: ليس كما قال ابن الزانية، كان ينبغي أن يقول:

قعدتُ من فوقِ عَرْدٍ لابن فرناسِ فخلتُهُ ناتئاً شبراً على راسي(٤)

وكان عباس بن فرناس، كما يظهر في كثير من الروايات، جشعاً كثير الحسد لاقرانه ومعاصريه، حريصاً على ان يستأثر بكل خير دونهم، ومما يدلّ على ذلك، أنه عندما حضر مجلس محمود بن أبي جميل في شذونة ولاحظ اعجاب الحضور بغناء ابن زرياب، مدّ يده الى العود فأخذه وغنى ونال جائزة الوالي دون غيره(٥).

---

(١) نفسه، ١٦/٦٦٧ - ٦٦٨

(٢) المقري: نفح الطيب، ٣/٣٧٥

(٣) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٨

(٥) انظر هذه الحكاية في: الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٩؛ المقري: نفح الطيب، ٣/١٣٣

وفي أبياته التي غنّى بها للأمير محمد بن عبد الرحمن يتوسّل بها ليصبح مغنياً عنده، نجد ابن فرناس يحاول الحطّ من شأن المغنّين الذين سبقوه للغناء، فعندما جاءت نوبته غنّى بالابيات التالية(١):

الجهل ليلٌ ليس فيه نور ... والعلم فجرٌ نورهُ مشهورُ
يا ابن الخلائف كم تستّر قاعدٌ ... عنّي ويصدىء سَمْعَكَ المكسورُ
وقد استبنتَ فسادَ ذاك وفي دعا ... مولاك من إصلاحه تيسير
وأمورُ ملكك كلّها موزونةٌ ... قد حاطها الإحكام والتجبير
فأصِخْ لأصلٍ إن هززْتَ فروعه ... يسقُطْ عليك اللؤلؤ المنثورُ

ولا أُستبعد أن يكون السببُ الذي من أجله لم يهتزّ الأمير لهذه الابيات(٢) أنها تنطوي على نيْل من المغنّين الآخرين، وتعكس غروراً وزهواً وحسداً في شخصية ابن فرناس.

كذلك يظهر هذا الحسد والحرص من خلال مطالبة ابن فرناس للأمير محمد بإطلاعه على الدفتر الفلكي الذي كان عبدالله بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن الاوسط يستعين به(٣).

أما الجشع والحرص على كسب المال من جميع الوجوه فيظهر جلياً في كثير من أخبار ابن فرناس، فقد كان يرفع جميع صناعاته واختراعاته للأمراء لكي ينال جوائزهم، وكان يغنّي للأمراء لقاء مكافآت يحصل عليها، وكان ينشد شعره للتكسّب، بل كان يكافأ حتى على انشغاله بالعلم، كما حدث عندما فسّر كتاب العروض للخليل بن احمد، فقد وصله الأمير بثلاثمائة دينار وكساه(٤). وكان عبّاس فرناس يتفنن في استدرار إعجاب الأمير محمد ومكافآته، فقد كتب له مرّة أربعة أبيات بالذهب على تفاحة محجولة ورفع بها الى الأمير، ومطلع الأبيات:

---

(١) ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٠
(٢) نفسه
(٣) نفسه، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢
(٤) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩

تـفّـاحـةٌ مـصـفـرة الـبـعـضِ بـخـوفـهـا مـن ألم الـعـضّ

فاستملح الأمير التفاحة، واستحسن الأبيات، وأمر أن يُغَنّى بها، وأمر لعبّاس بأربعمائة دينار بعددها صلةً، وقال: لو زادنا لزدناه(١).

ويظهر أن الأمير محمّدا كان يدرك حبّ عبّاس للمال، فكان يكافئه حتى على العمل الذي لا ينجح بأدائه، فعندما غنّاه الأبيات التي مطلعها:

الجـهـل لـيـلٌ لـيـس فـيـه نـور والـعـلم فـجـرٌ نـوره مـشـهـور

ولم يهتز الأمير بها، ولا للمحاولة التي تلتها، ومع ذلك أمر له بجائزة(٢). وعندما نال جائزة محمود بن أبي جميل والي شذونه، وكانت الجائزة القبة التي صنعها الوالي للاحتفال، باع ابن فرناس تلك القبّة بخمسمائة دينار(٣) لعبد الملك بن جهور(٤).

ويسوق لنا محمّد عبد الله عنان في كتابه «تراجم اسلامية شرقية واندلسية(٥)» قصة محاكمة عباس بن فرناس بتهمة الزندقة والكفر. ويذكر بأنه نقل هذه القصة من قطعة مخطوطة من تاريخ ابن حيّان حصل على صورتها من مكتبة جامع القرويين بفاس. وجاء في هذه القصة «أن ابن فرناس قد اعتقل وقدّم للمحاكمة امام قاضي قرطبة سليمان بن اسود الغافقي(٦)، وعقدت المحاكمة بالمسجد الجامع، وهـرع

(١) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٤

(٢) نفسه، ص ٢٧٩ - ٢٨١

(٣) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٩

(٤) هو أبو مروان عبد الملك بن جهور، وزير جليل أديب شاعر كاتب، في أيام عبد الرحمن الناصر، وكان مقرباً منه، اذ ولاّه الخليفة الخزانة سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م. ثم ولاّه الوزارة (انظر ترجمته في: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٨٢، الضبيّ: بغية الملتمس، ص ٢٧٦؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ١/٢٤٣؛ وأورد له الكتاني في التشبيهات عدّة مقطوعات شعرية.

(٥) عنان: تراجم اسلامية، ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(٦) أبو أيوب سليمان بن اسود بن يعيش بن سليمان الغافقي من أهل قرطبة، استقضاه الامير محمد بن عبد الرحمن بقرطبة مرتين، وتوفي عن خمس وتسعين سنة(انظر: ابن الفرضي: تاريخ علماء الاندلس، ١/١٨٥؛ ابن سعيد الاندلسي، المغرب، ١/١٥١؛ النباهي، ابو الحسن بن عبد الله ابن الحسن المالقي: تاريخ قضاة الاندلس او المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ص ٥٦.

الناس لشهودها، واجتمع حشدٌ من العامة للشهود عليه، ومن اقوال الشهود، قول احدهم: سمعت ابن فرناس يقول «مفاعيل مفاعيل» ومنهم من قال «رأيت الدم تفور من قناة داره ليلة ينير» الى غير ذلك مما يصفه ابن حيّان «بأحموقات من غتراء شهود عليه ذوي جهلٍ وقدامة» وكان القاضي سليمان بن أسود، بالرغم من صرامته، ذهناً مستنيراً، فلم ترقه تلك الترّهات، ولم يجد فيها طائلاً فشاور جماعة الفقهاء، فيما قيّد منها، ولم يجد سبيلاً الى مؤاخذة ابن فرناس، وقضى ببراءته واطلاق سراحه».

ولئن كان عباس بن فرناس قد نجا من تحامل الناس عليه ومحاولة زجّه بالسجن او الحكم عليه بالإعدام بتهمة الزندقة والكفر، ألاّ ان هذه التهمة أثرت في مدى عناية المؤرخين بسيرته، ويبدو ان هذه التهمة كانت تقف وراء اهمال كثير من المؤرخين، ربما بصورة متعمدة، التعريف به والتعرّض لسيرته، فتجاوزت عنه كثير من المصادر الاندلسية والمشرقية التي كان من شأنها ان تترجم لامثاله من العلماء الافذاذ، وربما يستغرب المرء عندما لا يجد لابن فرناس ترجمة في كتاب طبقات الأمم لصاعد، او في كتاب تاريخ الحكماء للقفطي، او كتاب المطرب لابن دحية، او كتاب البديع في وصف الربيع للحميري، أو غير ذلك من المصادر الأدبية والتاريخية الاندلسية، وذلك على الرغم من كثرة الرواة الذين تناقلوا شعره واخباره ممن نقع على اسمائهم في ما تبقى من المصادر التي عرّفت به.

أما وفاة عباس فقد ذكرها ابن سعيد الاندلسي في كتاب «المُغْرِب في حلى المغرب» قائلاً «توفّي في أعقاب أيام محمد بن عبد الرحمن سنة أربع وسبعين ومائتين*»(١).

(*) ٨٨٧م

(١) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

ـ ٢ ـ شعره

على الرغم مما اشتهر به عبّاس بن فرناس من تجارب وابتكارات علمية، وعلى الرغم من استناد شهرته الى تجربته في الطيران، الاّ ان الجانب الذي غلب عليه هو نظم الشعر. ومع ان الدكتور احسان عباس، في كتابه «تاريخ الأدب الأندلسي ـ عصر سيادة قرطبة» يستشهد بعباس بن فرناس على الشعراء الذين يقع الشعر لديهم موقعاً ثانوياً(١)، الاّ ان هنالك أدلة تشير الى أن الشعر كان الغالب على اهتمامات عباس بن فرناس؛ فقد وصفه الزبيدي بقوله «وكان الشعر اغلب ادواته عليه»(٢). وقد تبين من استعراضنا لمخترعات ابن فرناس انه قرن بين هذه المخترعات وبين الشعر، اذ نجده يصف كل واحد منها تقريبا بأبيات يرفعها الى الامراء الأمويين.

وكان ابن فرناس من الشهرة في نظم الشعر الى الدرجة التي جعلته شاعر بلاط متميزاً لدى ثلاثة من امراء بني أمية في الاندلس، هم على التوالي: الحكم بن هشام الربضي (ت ٢٠٦هـ/٨٢٢م) وابنه عبد الرحمن الاوسط (ت ٢٣٨هـ /٨٥٢م) ومحمد بن عبد الرحمن (ت ٢٧٣ هـ/٨٨٦م)(٣).

ولئن كان ابن فرناس شاعراً متكسباً في بلاط هؤلاء الامراء الا انه كان شاعرهم الاول، ولولا تفوقه في فنّ المديح لما استطاع أن يبلغ ما بلغه من مكانة مرموقة لديهم، ولا فتحت له ابواب مجالسهم على التعاقب، ولذلك وصفه ابن حيان في المقتبس بأنه كان عند الأمير محمد بن عبد الرحمن «شاعره البديع»(٤) كما جعله بين شعراء ذلك البلاط «فحلهم الخنذيذ»(٥)، ووصفه أيضاً بأنه «كبير الجماعة»(٦) وذلك في سياق الحديث عن شعراء الامير محمد بن عبد الرحمن، مما يوحي بأنه يقصد جماعة الشعراء.

---

(١) عبّاس، د. احسان: تاريخ الأدب الاندلسي ـ عصر سيادة قرطبة، طبعة ثانية منقحة ومزيدة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩ ص ١٥٣.

(٢) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٨.

(٣) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

(٤) ابن حيان: المقتبس (تحقيق د. محمود مكي)، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨

(٥) نفسه

(٦) نفسه، ص ٣٣٨

وقد شهد بشهرة عباس بن فرناس وتفوقه في نظم الشعر غير ما مؤرّخ من مؤرخي الأدب، فقد قال فيه حرقوص انه «كان شاعراً مفلقاً وفحلاً مجوّداً مطبوعاً مقتدراً كثير الابداع حسن التوليد مليح المعاني بعيد الغور رقيق الذهن. . .»(١) وأورد له في كتابه «طبقات الشعراء في الاندلس» ـ الذي لم يكتب له الوصول الينا ـ قصائد مطوّلة ومقطعات.(٢) ووصفه صاحب «جذوة المقتبس» وصاحب «بغية الملتمس» بأنه «شاعرٌ أديب مشهور».(٣) ووصفه الحسن بن محمد بن مفرج بالحكيم الشاعر(٤)، وقال عنه ابن سعيد الاندلسي في كتاب المغرب بأنه «كان شاعراً مفلقاً»(٥)، وقال عنه الفيروز آبادي في «البلغة»: «وله شعرٌ فائق»(٦). غير ان الذي وصلنا من شعر عباس بن فرناس قليل بالقياس الى الكثرة التي توحي بها الاشارات السالفة، وبالقياس الى طول المدّة التي قضاها في بلاط الأمراء الأمويين ينشدهم الشعر والامداح ويؤلف لهم الأغاني والاوصاف.

وعلى الرغم من كثرة الرواة الذين رووا شعره، وكثرة المصادر التي اوردت اخباره، فإنّ أحدا لم يذكر أنّ له ديوان شعر. وهنالك بعض المصادر التي عرّفت بابن فرناس ولم يكتب لها الوصول الينا، ولو قدّر لهذه الكتب ان تصل الينا فربّما كشفت عن جوانب اخرى في شعر عباس بن فرناس وسيرته. ومن هذه المصادر الكتاب الذي ألفه معاوية بن هشام الشبينسي(٧) في تاريخ دولة الأمويين، وقد نقل عنه ابن حيان في كتاب المقتبس(٨) بعض اخبار عباس بن فرناس، لكنها جاءت مبتورة بسبب

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٧.

(٢) نفسه، ١٦/٦٦٨

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣١٨؛ الضبّي: بغية الملتمس، ص ٤٣١

(٤) ابن حيّان: المقتبس (تحقيق د. محمود مكي)، ص ٢٨٣.

(٥) ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

(٦) الفيروز ابادي: البلغة، ص ١١٩

(٧) توفي سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م (انظر: ابن الأبّار، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م): التكملة لكتاب الصلة ٢ج، عني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزّت العطّار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الاسلامية، القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م، ٢/٦٩٢).

(٨) ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٤.

تلف في النسخ التي اعتمد عليه المحقق. ومنها كتاب الرازي(١) في اخبار ملوك الاندلس، الذي اعتمد عليه ابن حيّان في ترجمته لابن فرناس(٢)، ومنها كتاب طبقات الشعراء في الاندلس لحرقوص(٣)، الذي نقل عنه صلاح الدين الصفدي في كتاب الوافي بالوفيات(٤)، ومنها: كتاب «اخبار شعراء الاندلس» لابي بكر عبادة بن ماء السماء(٥)، الذي نقل عنه ابن حيّان في المقتبس بعض اخبار ابن فرناس(٦)، ومنها: كتاب الاحتفال في تاريخ اعلام الرجال للحسن بن محمد بن مفرج(٧)، وقد نقل عنه ابن حيان في المقتبس (٨)، وقد ذكر الزبيدي في «طبقات النحويين واللغويين» اسماء عدة من الرواة الذين رووا اخبار عباس بن فرناس واشعاره(٩).

ومع ذلك فإنّ ما وصلنا من شعر لابن فرناس ـ على قلة هذا الشعر ـ يكشف عن شاعر له باع طويلة وقدم راسخة في نظم الشعر، وان خصائص هذا الشعر لا تختلف كثيراً عن تلك التي ذكرها حرقوص من الطبع والابداع وحسن التوليد وملاحة المعاني وغير ذلك(١٠).

أما موضوعات شعر ابن فرناس، فإنّ القصائد والمقطوعات التي وصلتنا تعطينا صورة عن هذه الموضوعات، ومعظمها صادر عن مجالات اهتمام عباس بن

---

(١) هو ابو بكر احمد بن محمد بن موسى الرازي، مؤرخ قرطبي، وكان شاعراً، له كتاب في اخبار ملوك الاندلس وآخر في انساب مشاهير أهل الاندلس (ت ٣٤٤هـ/٩٥٤م) (انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ١٠٤؛ ابن الفرضي: تاريخ علماء الاندلس، ٤٢/١؛ القفطي: إنباه الرواة، ١٧١/١).

(٢) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٣٥٦

(٣) ابو سعيد عثمان بن سعيد الكناني، وقد عرّفنا به في حاشية سابقة.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ٦٦٧/١٦

(٥) عرفنا به في حاشية سابقة.

(٦) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٧٩

(٧) ابو بكر الحسن بن محمد بن مفرّج بن حماد بن الحسين المعافري (ت بعد ٤٣٠هـ/١٠٣٨م)، (ابن بشكوال: كتاب الصلة، ١٣٦/١ ـ ١٣٧).

(٨) ابن حيّان المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي) ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤

(٩) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩

(١٠) الصفدي: الوافي بالوفيات، ٦٦٧/١٦

فرناس، كالعمل في بلاط الامراء والانشغال بالموسيقى والغناء، واعتنائه بالفلك والتنجيم والحكمة والفلسفة، وميله الى الابتكار والتجريب والصناعة، فضلاً عن معالجة خصوماته مع الشعراء والفقهاء والعلماء من معاصريه، الى جانب قوله في الغزل والوصف.

وقد يجتمع اكثر من غرض في المقطوعة او القصيدة الواحدة، ونجد المدح ـ على وجه الخصوص ـ يخالط معظم الأغراض، فهو متصل بوصف الانتصارات التي كان يحققها الأمير، ومتصل بوصف القصور التي كان يشيدها الأمير ويعتني بها، وبوصف مجالس الغناء والموسيقى التي كانت تنعقد بحضور الأمير، وبوصف الآلات التي كان يصنعها الشاعر إما بطلب من الأمير واما لأنها ترفع اليه في نهاية المطاف. ولا غرابة في ذلك فهو شاعر بلاط يخدم الامراء بشعره ويتكسب بذلك الشعر. ولذلك نجد المدح في شعره يحتل المرتبة الاولى في اغراضه، ونجد ظلال المديح ضافية على بقية اغراضه، ولا تخلو قصيدة مدح من ارتباط بمناسبة من المناسبات التاريخية او الاجتماعية او غيرها مما يعرض في حياة الأمير. فمن هذه الامداح ما يتصل بانتصارات الممدوح، وكانت القصائد الطويلة في شعره هي التي تصف انتصارات الأمير محمد بن عبد الرحمن وتهنئه بها؛ فعندما انتصر هذا الأمير على أهل طليطلة والنصارى معاً في وقعة وادي سليط سنة ٢٤٠هـ /٨٥٤م هنأته الخطباء وامتدحته الشعراء(١)، وكان من ذلك قصيدة قالها عباس بن فرناس مطلعها:

ومختلفِ الأصواتِ مؤتلفِ الزِحْفِ لهومِ الفلا عبلِ القَنابلِ ملتفِّ

وقد وصف ابن فرناس، في هذه القصيدة، الجيش الاسلامي والمعركة التي خاضها وما تحقق على أيدي المسلمين بها، مما يجعل من هذه القصيدة «وثيقة تاريخية»، ولذلك نجد ابن عبد ربه وابن عذاري يشيران الى المعركة والى قصيدة عباس بن فرناس فيها بالقول: «وشعره يكفينا من صفتها»(٢). وفي هذه القصيدة،

(١) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨

(٢) ابن عبد ربه، احمد بن محمد الاندلسي (ت ٣٢٨هـ /٩٣٩م): العقد الفريد ٨ج، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، ١٣٥٩/١٩٤٠م، ٥/٢٢٠؛ ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ١١١/٢.

بالاضافة الى وصف المعركة، مدحٌ للأمير محمد في مثل قوله:

سميّ ختام الانبياء محمدٍ إذا وُصفَ الأملاكُ جلّ عن الوصف

وعندما هاجم الأمير محمد طليطلة سنة ٢٤٤هـ /٨٥٨م، وحارب أهلها وهدم قنطرتها، قال عباس بن فرناس يغبطه بما تهيّأ له، في شعر مدحه به(١):

يا ابن الخلائف يا محمّد يا من سيفُهُ في راحة النصْرِ
ما إن تقوم بحرّ بأسك في الـ دنيا محصّنةٌ من الدهْرِ
أضحت طليطةٌ معطّلةً من أهلها في قبضةِ الصقْرِ
تُركَتْ بلا أهل تؤهّلها مهجورة الأكناف كالقبْرِ
ما كان يُبقي الله قنطرةً أضحت سبيل كتائب الكُفْرِ

وفي سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م حقق الامير محمد سلسلة انتصارات في طليطلة وطَلَبيرة(٢) وبنبلونة(٣)، ووافقت عودته من هذه الانتصارات حلول عيد الفطر(٤)، فقال عباس بن فرناس يهنئه بالانتصارات وبحلول العيد ويمدحه في قصيدة مطلعها(٥):

إن القفول الذي أوفى بعيدْين مكرّمينْ على الدنيا عزيزيْنِ
قدوم أكرم أهل الأرض قاطبةً قدوم فطرٍ، فكانا خيرَ عيدينِ
. . . الخ.

ولما كانت هذه القصيدة من روائع شعر ابن فرناس، فقد كان لها صدىً في شعر غيره، ففي سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م انتصر الامير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

---

(١) ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦

(٢) بالأسبانية Talavera، مدينة قريبة من طليطلة على بعد سبعين ميلاً (الحميري: الروض المعطار، ص ٣٩٥)

(٣) بالاسبانية Pamplona تبعد عن سرقسطة ١٢٥ ميلاً (الحميري: الروض المعطار، ص ١٠٤).

(٤) ابن حيّان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٩

(٥) نفسه، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩

(ت ٣٠٠هـ /٩١٢م) على ابن مستنة(١)، وجاء هذا النصر موافقا لعيد الاضحى لذلك العام، فقال شاعره عبيد الله بن يحيى بن ادريس(٢) قصيدة بهذه المناسبة، عارض بها قصيدة ابن فرناس مستخدما الوزن والقافية وكثيرا من المعاني التي استخدمها ابن فرناس في قصيدته، ومن أبيات قصيدة عبيد الله هذا قوله(٣):

هـذا النجاحُ أمـامَ المسلمـينَ وذا هـذا القفـولُ الـذي أوفى بعيـديْن

ويعلق صاحب المقتبس على هذه القصيدة بقوله(٤) «وعنى بقوله « هذا النجاح» شعر عبّاس بن فرناس في قفول الأمير محمد عن طليطلة موافقاً للعيد حيث يقول: إن القفول الذي أوفى بعيديْن».

وفي سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م تغلب الامير محمد على ثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي في قرطبة في حصن يقال له حصن الحنش فقال عباس بن فرناس قصيدة يمدح بها الأمير مطلعها(٥):

يا ابن الخلائف من مروان انجبك الـ بيضُ الجهـاضيمُ والغـرُّ اللهـاميمُ

الى ان يقول:

لـلّه من ذلّـت الـدنيـا لبصـولتـه ومَنْ لـه الدهـرَ أعلى الفتح مقسـومُ

ولعباس بن فرناس في تهنئة الأمير محمد بتوليه امارة الاندلس وتعزيته بوفاة والده، من قصيدة له(٦):

---

(١) سعيد بن مستنة كان حليفاً لابن حفصون الذي ثار في جنوب الاندلس، وكانت هزيمة ابن مستنة في حصون ريّة وبيشتر ولكّ (انظر: ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ٢/١٤٤).

(٢) ابو عثمان عبيد الله بن يحيى بن ادريس من اهل قرطبة، كان الشعر أشهر ادواته لم يتقدمه فيه احدٌ في وقته، ولي الوزارة، وتوفي سنة ٣٥٢هـ /٩٦٣م (انظر: ابن الفرضي: تاريخ علماء الاندلس، ١/٢٥١ ـ ٢٥٢، الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٦٩

(٣) ابن حيان، ابو مروان حيان بن خلف بن حيان (ت ٤٦٩هـ /١٠٧٦م): كتاب المقتبس في تاريخ رجال الاندلس،تحقيق: الأب ملشور م. انطونية، باريس، ١٩٣٧، ص ١٤٤

(٤) نفسه.

(٥) ابن حيان: المقتبس ((تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨

(٦) نفسه: ص ١٢٤

ما غابت الشمسُ حتى اشرق القمرُ ... محمدٌ فارتضاه الله والبَشَرُ
يا ليلةً اسفرت قبل الصباحِ عن الـ ... مهديّ يفديك مني السمعُ والبصرُ
لتطبقنّ على الدنيا خلافتُه ... سماءَ جودٍ لها ماءُ اللّهى مطَرُ
ويُهلِكُ الشركَ في اقصى مداخلهِ ... حتى يغيب فلا يُدْرى له أثرُ
بذاك تخبرنا غرّ النجوم كما ... أوحى إليها بذاك الشمسُ والقَمَرُ

ومثلما ارتبط المدح عند عباس بن فرناس بوصف الانتصارات والتهنئة بها وبالمناسبات المختلفة، فكذلك ارتبط بوصف القصور والمباني التي شادها الأمراء فعندما بنى الأمير محمد قصراً في رصافة قرطبة واعتنى بتضخيم مبانيه وزراعة ما حوله، استدعى اقوال شعرائه في وصفها، وتهنئته بما حصل له منها، وكان من بينهم عباس بن فرناس الذي أنشده قصيدةً رائيةً ذكرت المصادر انها احسن ما قيل في تلك المناسبة(١). ومنها في الاشارة إلى القصر ومدح الأمير:

وراثةُ آباء تولّوْا خلائفٍ ... بهاليلَ املاكٍ خضارمةٍ زُهْر
أبى الله إلاّ يُتمّ بناءه الـ ... رفيعَ الذي تمّت به غايةُ الشكر
سميُّ النبيّ المصطفى وحميمُه ... وخاتمِ مسطورِ النبوّةِ في الذِكْرِ

وعندما زاد الأمير محمد بن عبد الرحمن في مسجد قرطبة وعني بزخرفة ذلك المسجد وصلى فيه ومثل الشعراء بين يديه بعد خروجه الى قصره(٢)، انشده عباس بن فرناس مادحاً:

محمدٌ خيرٌ مسترْعىً ومؤتَمنٌ ... للمسلمين جميعاً حيثما كانوا
بنى لهم مسجداً جلّت عجائبه ... لولا السماءُ لما ضاهاه بنيان
كذا يكونُ الإمام المرتضى أبداً ... أقوى صباباته تقوى وايمانُ

والمقطوعات التي كان ينظمها عباس بن فرناس لكي تلحنها الجواري وتغني بها للأمير محمد لم تخلُ من مدح للأمير، فمن ذلك قوله: (٣)

---

(١) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨
(٢) نفسه، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣
(٣) نفسه، ص ٢٨٦.

تحفَّظْ من الهجران إن كنت تقدرُ ... يموتُ الفتى من حبّه حين يُهْجَرُ
فأما إذا ما بان عنه حبيبُه ... فلا شك فيه ذلك اليومَ يُقْبَرُ
رأيتُ أمير المؤمنين محمداً ... وفي وجهه بدْرُ المحبةِ يُبصَرُ
همامٌ كأنّ الشمسَ تلقي شُعاعَها ... على الخلْق منه حين يبدو ويَظهَرُ

ومن هذا الضرب من الشعر اربعة أبيات كتبها بالذهب على تفاحة محجولة رفع بها الى الأمير، وقال في آخر ابياتها(١):

محمدٌ أكرمُ مستخْلَفٍ ... من خلفاء الله في الارضِ

وفي ما تبقى لنا من شعر عباس بن فرناس لا يقع الباحث على قصيدة واحدة مخصصة للمدح دون أن تخالطها أغراض اخرى من شعر المناسبات.

وعلى الرغم من خدمة عباس بن فرناس في بلاط ثلاثة أمراء متعاقبين من أمراء بني أمية في الاندلس إلاّ أن ما وصلنا من شعره في المدح يكاد يكون مقتصرا على ثالث هؤلاء الأمراء وهو الأمير محمد بن عبد الرحمن.

والناظر في الأوصاف التي اضفاها عباس بن فرناس على هذا الأمير يجدها تتسم بالمبالغة التي تكاد تميّز هذا الأمير عن سائر الخلق؛ فالشاعر يحرص على تسميته «خليفة» «وابن الخلائف» «وأمير المؤمنين» علماً بأن الخلافة الأموية في الأندلس لم تعلن بصورة رسمية إلاّ في عهد عبد الرحمن الناصر في سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨م، ويصفه لذلك بقوله:

محمدٌ أكرمُ مستخلَفٍ ... من خلفاء الله في الأرض

ويقول انه «اذا وُصفَ الأملاكُ جلّ عن الوصف» وانه «اكرم من في الارض قاطبة»، ويقول فيه أيضاً:

لله من ذلّت الدنيا لصولته ... ومن له الدهرَ أعلى الفتح مقسومُ

وهو:

محمّدٌ خيرُ مسترعىً ومؤتمنٍ ... للمسلمين جميعاً حيثما كانوا

---

(١) نفسه، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

بنى لهم مسجـداً جلّت عجـائبـه لـولا السماءُ لمـا ضـاهـاه بنيـانُ

وفي وصف الشاعر للأمير محمد على أنه خليفة وانه ابن الخلائف وانـه أمير المؤمنين وأنه أكرم مستخلف في الارض وانه افضل ملوك الارض قاطبة، اشارة الى رفض الشاعر للخلافة العباسية في المشرق لأنها قامت على انقاض الخلافة الأموية في دمشق، وكأنما يريد أن يقول بأن الامويين هم أحقُّ الناس بالخلافة وأنهم أهل لها.

ومن الواضح أيضاً أن الشاعر قد أفاد من اسم الممدوح «محمد» ليقرنه باسم النبي عليه السلام، فهو «سميُّ ختام الأنبياء محمدٍ».

وهو:

سميُّ النـبيّ المصـطفى وحميـمُـه وخـاتم مسطور النبّـوة في الـذكْـر

وهو:

محمـدٌ خـيرُ مستـرعىً ومؤتمنٍ، وهـو «محمـدٌ» أكـرم مُسْتَخْلَفٌ»

وفي تمييزه للأمير محمد عن جميع الخلق وقرنه بالنبي محمدّ ﷺ وجعله افضل ملوك الأرض، وجعله مؤتمناً على المسلمين «أينما كانوا» وأنـه «أكرم مستخلف من خلفاء الله في الارض» فان عباس بن فرناس يبدو وكأنه يفضل الأمير محمدا على جميع الخلق ولا يستثني من ذلك أحداً حتى الخلفاء الراشدين والصحابة وغيرهم، بل انه حين يقرن اسمه باسم النبي محمد ﷺ يكاد يجعله مع النبي في منزلة واحدة، وفي بعض الأبيات يصفه بصفات لا تخلو من إلماح الى تجلّيها وتمثلها في النبي محمد ﷺ، كما في قوله:

مـا غابت الشمسُ حتى أشـرق القمرُ محمـدُ فـارتـضـاه الله والـبـشَـرُ
يـا ليلةً اسفرت قبـل الصباح عن الـ مهـديّ يفديـك منّي السمعُ والبَصَـرُ

وقوله:

رأيـت أمـير المـؤمـنـين محـمـداً وفي وجـهـه بـدْرُ المجّـرة يـبـصَـرُ
همـامٌ كـأن الشمسَ تُلقي شُعـاعَهـا عـلى الخلقِ منـه حـين يبـدو ويـظهـرُ

وقوله:

محـمـدٌ أكـرمُ مـسـتـخـلَفٍ مـن خـلفـاء الله في الأرض

ففي هذه الأبيات كثيرٌ من الإشارات التي تشكك في نية عباس بن فرناس. وربما كانت هذه الابيات ومثيلاتها ـ وربما نظيرات لها لم تصلنا ـ من بين الأسباب التي دعت الفقهاء الى اتهام عباس بن فرناس بالزندقة.

وبصرف النظر عن نيّة الشاعر، فإنّ هذه الايحائية في شعره دليل على المستوى الفنّي الرفيع الذي بلغه شعر ابن فرناس.

ومثلما ارتبطت موضوعات الشعر عند عباس بن فرناس بخدمته لأمراء بني أمية في الاندلس، فكذلك ارتبطت بجوانب اخرى من سيرته ومجالات اهتمامه، لا سيما ما انكبّ عليه من صناعات وما انصرف اليه من ابتكارات؛ فقد كان كلما صنع شيئاً جديداً رفعه للأمير وشفعه بأبيات من الشعر في صفة ذلك المصنوع وفائدته ومجال استخدامه، فعندما صنع الآلة المسمّاة «المنقانة» لمعرفة الأوقات رفعها الى الأمير محمد ونقش فيها الأبيات التالية(١):

ألا إنـني لـلديـن خـيرُ أداة إذا غـاب عنكم وقتُ كـلّ صـلاة
ولم تُـرَ شـمسٌ بـالـنهـار ولم تُـنَرْ كـواكبُ ليلٍ حـالـك الـظلمـات
بـيُـمْـن أمـير المـسـلمـين محـمـدٍ تجلّت عـن الأوقـات كـلُّ صـلاة

وكان قبل ذلك صنع الآلة المسماة «ذات الحَلَق» بطلب من الأمير عبدالرحمن الأوسط، ورفعها الى الأمير مع الابيات التالية(٢):

قـد تـمّ مـا حمّـلتـني مـن آلـةٍ أعيـا الفـلاسفـة الجهـابـذَ دوني
لـو كـان بـطليمـوس ألهم صنعـةً لم يـثّقِـلْ بـجـداول الـقـانـون
فـاذا رأتـه الـشمسُ في آفـاقهـا بـعثـت إليـه بـنـورهـا المـوزون
ومنـازل القمـر التي حجبـت معـاً دون العيـون بكـلّ طـالـع حـين
يبـدون فيهـا بـالنهـار كـما بـدتْ بـالـليـل في ظـلمـاتهـن الجـون

(١) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.
(٢) عنان: تراجم اسلامية، ص ٢٦٧.

وكان لانشغال عباس بن فرناس بالموسيقى والغناء أثرٌ في اغراض شعره، فبعض شعره مقطوعات كان ينظمها لكي تلحّن وتُغنّى، وبعضه كان وصفاً لمجالس الغناء، وبضعه تذييلٌ على شعر لغيره مما كان يغنى في مجالس الطرب، وبعضه نقدٌ لغناء غيره من المغنّين الاندلسيين وتوسّلٌ إلى الأمراء لكي يأذنوا له أن يغني بين أيديهم. وقد بيّنا ذلك عند حديثنا عن انشغال ابن فرناس بالغناء والموسيقى.

كما كان لانشغاله بالفلك والتنجيم أثرٌ في اغراض شعره. كالذي يظهر في القصيدة التي يخاطب بها الأمير محمداً ويطلب منه أن يعيره دفتر الجداول الفلكية الذي وعده به(١)، وغير ذلك.

وهذا الشعر المتصل بالصناعات والابتكارات والعلوم أقل منزلة من حيث مستواه الفني من بقية الأغراض، وهو أقرب الى النظم التعليمي منه الى الشعر، ولكنه من جهة اخرى يحتفظ بقيمة علمية وتاريخية كبيرة، لأنه يصوّر جانباً مهماً من جوانب الحضارة الاندلسية، ويسلط الضوء على بعض النشاطات الابداعية التي ندر ان نقع على معلومات شافية عنها في المصادر المختلفة. ولعلّ مثل هذا الشعر عند ابن فرناس وغيره يشكل ـ بعد جمع المتفرّق منه ـ مصدرا من مصادر التعرف على الحضارة الاندلسية.

ومن ابرز اغراض الشعر عند ابن فرناس غرض الوصف، وهو من الاغراض التي تجلت فيها براعته الفنية فضلاً عن إلقائه الضوء على كثير من جوانب الحياة الاندلسية من خلال قصائد الوصف؛ ففي القصيدة التي قالها ابن فرناس في وصف القصر الذي انشأه الأمير محمد بن عبد الرحمن في منية الرصافة نلفي ابن فرناس مصوّراً بارعاً يحسن فنّ التصوير واستخدام الألوان والاكثار من التنويع بين الاضاءات والظلال، ونجده يحرص على نقل تفاصيل الصورة وعرضها نابضة بالحياة قادرة على تحريك القارىء واثارة أحاسيسه ،وذلك من خلال الاتكاء على الأساليب البيانية المختلفة من تشخيص وتشبيه واستعارة، ومن ابيات هذه القصيدة قوله(٢):

---

(١) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٢) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٤، الكتاني: التشبيهات، ص ٧٠

لها الغُرَفُ البيضُ التي يضحكُ الضحى ... وتلحفها من نورها في سنا الغرّ
حنايا كأمثال الأهلّةِ رُكّبت ... على عمدٍ تعتدُّ في جوهر البدْر
كأنّ من الياقوت قيست رؤوسها ... على كل مسنون مقيض من السدْر
كأن قصور الأرض بعد تمامه ... نتوءُ الذرى أخفى شخوصاً من الذرّ
وتنتشر الأبصار منها الى مدى الـ ... تنزه بالاطيار والوحش والزهر . . .
نؤوم الضحى ضافي العلى سجسج السنا ... تضيء بلا شمس عليها ولا بدْر

وعندما يصل الى وصف الحدائق المحيطة بالقصر يقول(١):

ويا حبذا أنباتها الخضرُ حولها ... وأنهارها البيضُ التي تحتها تجري
ترى الباسقاتِ الناشراتِ فروعَها ... موائسَ فيها من مزاولة الوفرِ
كأن صياغاً صاغ فوق غصونها ... من الذهب الناري عراجينَ من تمْرِ
تبدّلن حالات ثلاثاً لهنّ في ... مصوغ الحلى شكلٌ وفي الجوهر النضر
نشتْ لؤلؤاً ثم استحالت زمرّداً ... يعود الى العقيان بعد جنى البُسْر
وقد يُشْتَهى منها شرابُ الذُّ من ... تضرّعِ مشتاقٍ الى عاشق الكبْرِ
ومن أرجاتٍ في الغصون كأنها ... خدود عذارى في مقانعها الخضْرِ

وهذا المزج بين وصف الطبيعة وبين محاسن المرأة هو من أبرز سمات الوصف عند الاندلسيين، وتجلّي هذه السمة في شعر وصف الطبيعة عند عباس بن فرناس يجعله من أوائل الشعراء الاندلسيين الذين خاضوا في موضوع وصف الطبيعة وشاركوا في تثبيت اركانه وصياغة ملامحه.

ويمضي عباس بن فرناس بعد ذلك الى وصف الطيور والحيوانات التي اشتملت عليها حديقة القصر فيقول:

يغرد فيها كلّ مختضب الشوى ... موشّى القرا قاني الطُلى أخضرِ الصدرِ
الى كلّ سلتاء أضاعت خضابها ... مدبّجة الكشحين والبطن والظهر
اذا ما استهلّت في شجيّ غنائها ... ينسّيك ترجاعَ اليراع بلا زمْرِ

---

(١) أخطأ الدكتور سعد اسماعيل شلبي في ظنه أن ابن فرناس يصف بهذه الابيات «القبة التي صنعها في داره على شاكلة القبّة السماوية» (انظر: شلبي: الاصول الفنية للشعر الاندلسي، ص ٢٢٨).

وما شئت من هفهافةٍ قلمية الـ ... غناءِ(١) إلى نـاييّـة النغم والنبْـرِ
وحـابسـةٍ في ذقنها درهمين مـا ... يـزولان فيما تشتـريه ومـا تشـري
قـد اشتملت في يلمَق(٢) وأعـارهـا ... هنـاك غـرابُ المـاء خفّيه لـلأجْـر

والناظر في هذه الابيات يجد أن عباس بن فرناس قد أخذ بأيدينا وتجّول بنا في حديقة عامرة بالطيور من مختلف الأنواع والاحجام ذوات الألوان البديعة الزاهية والتغريد الشجيّ. وتشكل هذه الابيات مع الابيات التي تقدمتها في وصف حديقة القصر لوحة طبيعة متكاملة ومفعمة بالحركة والحيوية. وفيها وصفٌ لكثير من عناصر الطبيعة التي يزيد بعضها في جمال بعض، ونحسّ فيها خصوصية البيئة الاندلسية وصدى هذه الخصوصية في نفوس الاندلسيين ومجال عنايتهم وأدبهم.

إن شخصية قصيدة وصف الطبيعة في الأندلس واضحة المعالم في قصيدة عباس بن فرناس، مما يدل على أنّ هذا الغرض من أغراض الشعر قد عُرف عند الاندلسيين قبل ابن فرناس، وربما تكون معالمه قد اتضحت وشخصيته قد اكتملت في زمن ابن فرناس وعلى يديه وايدي معاصريه من شعراء الاندلس، ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل غير شاعر من الشعراء الاندلسيين اللاحقين يحتذون حذو ابن فرناس في هذه القصيدة؛ فهذا ابو الحسن عليّ بن حصن الاشبيلي(٤)، من شعراء المعتضد بن عباد ملك اشبيلية (ت ٤٦١هـ/١٠٦٨م)، يقول في وصف فرخ حمام(٥):

ومـا راعني إلّا ابنُ ورقـاءَ هـاتفـاً ... عـلى فنن بـين الجـزيـرة والـنهْـر
مـفسـتقُ طـوْقٍ لازورديّ كـلكـلٍ ... موشى الظّلى أحـوى القوادم والـظهر

---

(١) نسبة الى الجارية قلم «احدى جواري الأمير عبد الرحمن الأوسط، وكانت بارعة في الغناء (المقري: نفح الطيب، ٣/١٤٠).

(٢) اليلمق: القباء (لسان العرب).

(٣) التُّمُرة: طائر أصغر من العصفور والجمع تُمُر (لسان العرب).

(٤) انظر ترجمته في: ابن بسام الشنتريني: الذخيرة، ق ٢ م١ ص ١٥٨؛ ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٢٥٠.

(٥) ابن بسام الشنتريني: الذخيرة، ق٢ م١ ص ١٦٦ ـ ١٦٧؛ ابن سعيد الاندلسي: المغرب، ١/٢٥١.

ادار عـلى اليـاقـوت أجفـان لـؤلؤٍ وصـاغ من العقيان طـوقاً عـلى الثغر
حـديـدُ شبـا المنقـار داجٍ كـأنـه شبـا قلمٍ من فضـة مـدّ في حبـر
. . . الخ

ففي هذه القصيدة جميع عناصر المعارضة لقصيدة ابن فرناس، فقد التزم ابن حصن وزن قصيدة ابن فرناس وقافيتها وروِيّها وموضوعها (وصف الطيور)، بل تعدّى ذلك الى الاحتذاء بابن فرناس في اسلوب وصف الطير من خلال ذكر اجزاء الطير ولون كل جزء وصفته مع الاتكاء على الألوان والتشبيهات، كما نجد بعض معاني ابن فرناس والفاظه في ابيات ابن حصن، مما يجعل الاحتمال بأن ابن حصن الاشبيلي قد تمثل قصيدة ابن فرناس احتمالاً وارداً.

ومن الذين تمثلوا رائية عباس بن فرناس هذه، الشاعر مؤمن بن سعيد في قصيدته التي يصف بها قصر كُنْتُش الذي بناه الأمير محمد بن عبد الرحمن بأسفل قرطبة، ومطلعها(١):

مجالسُ يُرضي العينَ إفراطُ حُسنِها كـأن حنـايـاهـا حـواجبُ خـرَّدِ

وفي «المقتبس»(٢) ان مؤمنا بن سعيد «اقتدى فيها بقريعة عباس بن فرناس في الرصافة المقدم ذكرها». وفي هذه القصيدة ـ كما في قصيدة ابن فرناس ـ وصف للغرف والأقواس والزخارف والجنان المحيطة بالقصر والطيور والثمار.

ولا غرابة ان نجد الشعراء الاندلسيين يتمثلون قصيدة ابن فرناس. وقد اورد صاحب «المقتبس» رأي النقاد فيها قائلاً «اتفقوا كلهم على انه احسن ما قيل في معناه»(٣).

ومن شعر عباس بن فرناس في وصف الطبيعة قوله في صفه روضة:(٤)

تـرى وردهـا والأقحـوان كـأنـه بهـا شفـةٌ لمياء ضـاحكهـا ثغـرٌ

(١) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٣٧ ـ ٢٤١.
(٢) نفسه، ص ٢٣٧
(٣) نفسه، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨
(٤) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣١٨، الضبي: بغية الملتمس، ص ٤٣١

ويرى الدكتور بدير متولي حميد في هذا البيت انه لعله يكون اول محاولة عند الاندلسيين لوصف الرياض والطبيعة(١).

ولعباس بن فرناس مقطوعات شعرية مختلفة في الوصف اكثرها داخل في باب وصف الطبيعة بمعناها الواسع، فمن ذلك قوله في وصف فلاة(٢):

موسومة بالبُعد تحسبُ سهلها ... القى السماءُ بحوله اطنانا
فكأنها دارٌ تقاذفَ صحنها ... لم يجعل الباني لها ابوابا

وقوله في وصف السراب(٣):

يفلقن لجة آلِهِ فأمامها ... حاد واخر خلفها لم يلحق
فكأن ذا موسى وذاك باثره ... فرعون الا انه لم يغرقِ

وقوله في انبلاج الصبح(٤):

فبتنا وانواع النعيم ابتذالنا ... ولا غير عينيها وعيني كالي
الى ان بدا وجه الصباح كأنه ... جبين فتاة لاح بين حجال

إلى غير ذلك من المقطوعات(٥).

وكان لموضوع الغزل نصيبٌ في شعر ابن فرناس، لكن اكثره جاء ضمن اغراض اخرى، فمن ذلك قوله بمناسبة عودة الأمير محمد منتصرا مع حلول عيد الفطر، يصف المناسبتين معاً(٦):

طابا كتفّاحتيْ خدٍّ منعمة ... تورّدا في بياض بين صُدْغَيْنِ
معقربين كنونيْ كاتب نُقِطا ... فقابلا من مداد المسك راءينِ

(١) حميد، الدكتور بدير متولي: قضايا اندلسية، دار المعرفة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٤، ص ٦٣
(٢) الكتاني: التشبيهات، ص ١٧٧
(٣) نفسه، ص ١٧٧
(٤) نفسه، ص ٢٧
(٥) انظر وصفة لكوز في: الكتاني: التشبيهات، ص ٩٨، ووصفه لرحلة صيد في الكتاني: التشبيهات، ص ١٨٢ - ١٨٣، وانظر: شلبي: الأصول الفنية للشعر الأندلسي، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.
(٦) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

او مقلتي رشأٍ في طرفه حور مكحولتين بسحر البابلين
او كاجتماع الهوى والوصل في قرن لعاشق حار بين الهجر والبين

. . الخ .

ونحس في هذه الأبيات شفافية الغزل وبراعة التصوير وحسن التشبيه .

وفي مقطوعة غزلية اخرى نجد ابن فرناس يولد المعاني الغزلية ويبدع فيها فيقول(١) :

ان تلك التي احن اليها وعذابي وراحتي في يديها
نظر الناس في الهلال لفطر فتبدّتْ فافطروا اذ رأوْها
ذاك في سبعة وعشرين يوما فذنوب العباد طرا عليها
ولحيْني بانت ولم تشفِ قلبا مستهاما يطير شوقا اليها

فالشاعر لم يكرر المعنى المألوف الذي يشبه وجه محبوبته بالقمر، انما اعتمد عليه في استنباط معنى جديد منه، فجعل ظهور محبوبته في الوقت الذي كان الناس يرقبون هلال العيد في اواخر شهر رمضان، وكان ظهورها في ذلك الوقت بالذات، سببا في انهاء الناس صيامهم قبل ظهور الهلال، وكأنه اراد ان يقول ان الناس لم يفرقوا بين اشراق وجهها وظهور الهلال المنتظر .

اما الهجاء في شعر عباس بن فرناس فمصدره العلاقات الساخنة غير الودية بينه وبين بعض اقرانه من الشعراء والحاسدين، ومع ان المصادر الأدبية تتحدث عن مهاجاته مع مؤمن بن سعيد (٢) الا ان ما وصلنا من شعر ابن فرناس في غرض الهجاء قليل، ومن امثلته ما رد به على مؤمن بن سعيد عندما سخر الأخير من قبته الفلكية (٣) وغير ذلك(٤) .

وهذا الهجاء ـ على قلته ـ فاحش، وقد ذكر ابن سعيد الأندلسي ان كلا

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات، ١٦/ ٦٦٨

(٢) ابن حيان : المقتبس (تحقيق : د. محمود مكي)، ص ١٢٤، ابن سعيد الأندلسي : المغرب، ١/٣٣٣.

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٨.

(٤) ابن سعيد الأندلسي : المغرب، ١/٣٣٣

الشاعرين قد افحش في هجاء الآخر(١).

ولست استبعد ان تكون هذه العلاقة المتوترة بين الشاعرين عاملا من عوامل الرقيّ بالمستوى الفني للشاعرين، لأن كل واحد منهما ينافس الآخر ويسعى الى ان يبذه في كل شيء، ويتجنب ان يقع في الخطأ خشية ان يتعرض للسانه.

ومع ان ابن فرناس كان حكيما وفيلسوفا وعرف بحكيم الأندلس(٢)، الا اننا لم نعثر ـ فيما وصلنا من شعره ـ على قصائد او مقطعات في الحكمة، الا ما لا يكاد يذكر، نحو قوله(٣):

كـلُّ هـوى لا يمـيـتُ صـاحـبـه فـأصـلُ ذاك الهـوى مـن البُـغض

هذا عن اغراض الشعر عند عباس بن فرناس، اما عن السمات العامة لهذا الشعر فيمكن القول ان عباس بن فرناس من الشعراء المجددين الذين تأثروا ببيئة الأندلس العامة وبيئتهم الخاصة، وقل التأثير التقليدي المشرقي على اشعارهم. ولعل هذا هو ما قصد اليه حرقوص (توفي نحو ٣٢٠هـ/٩٣٢م) عندما وصف ابن فرناس قائلا«وكان اقل الناس سرقة من شعر غيره»(٤)ذلك ان قضية السرقات الشعرية لم تكن بعد قد اخذت تؤرق النقاد على الصورة التي ظهرت عليها في القرن الرابع الهجري وتركزت بشكل رئيسي على شعر ابي الطيب المتنبي (٣٠٣هـ ـ ٣٥٤هـ/٩١٥ ـ ٩٦٥م)، ولم تكن هذه القضية قد احتلت مكانة بارزة في زمن ابن فرناس (ت ٢٧٤هـ/٨٨٧م) او في زمن حرقوص (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م).

واذا كان ابن فرناس اقل الناس تأثرا بشعر غيره واقلهم سرقة من شعر السابقين فمن الطبيعي ان يتجه الى ابتكار المعاني والصور والأوصاف، ولذلك نجد حرقوصا يصفه بقوله «كان شاعرا مفلقا وفحلا مجودا مطبوعا مقتدرا، كثير الابداع، حسن التوليد، مليح المعاني، بعيد الغور، رقيق الذهن»(٥).

---

(١) نفسه، ١/٣٣٣.

(٢) ابن سعيد الأندلسي: المغرب، ١/٣٣٣، المقري: نفح الطيب، ٣/٣٧٤

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٨

(٤) نفسه، ١٦/٦٦٧

(٥) نفسه، ١٦/٦٦٧

فكثرة الابداع وحسن التوليد هما المجال الوحيد للشاعر الذي يأنف من التأثر بشعر غيره او السرقة منه، ولهذا السبب ايضا وصفه ابن سعيد الاندلسي بأنه كان «شاعراً مفلقاً»(١)ولأجل هذاكان من الشعراءذوي الصدارةفي بيط الأمراءمن بني امية، ولأجل ذلك ايضا اثر ابن فرناس فيمن جاء بعده من الشعراء الاندلسيين كما بينا في الحديث عن اغراض شعره.

وليس بعيدا على عباس بن فرناس الذي كان مبدعا ومبتكرا ومجددا في مجالات العلم والصناعة ان يكون كذلك في مجال المعاني والصور الشعرية. ولئن كان من العسير الجزم بأن معنى من المعاني او صورة من الصور هي مما لم يسبق اليه عباس بن فرناس، الا ان هنالك بعض المعاني والصور التي يستشعر الباحث جدتها واختصاصها به، فمن ذلك قوله في وصف انبلاج الصبح(٢):

الى ان بدا وجه الصباح كأنه جبين فتاة لاح بين حجال

وقوله يصف انعطاف كلب الصيد على الأرنب والانقضاض عليه في اثناء رحلة صيد(٣):

جادت له بعطفة لم تتهم كما انثنى في رجعه مَشْقُ القلَم

وقوله في المسجد الذي بناه الأمير محمد بن عبد الرحمن(٤):

بنى لهم مسجدا جلت عجائبه لولا السماء لما ضاهاه بنيانُ

وقوله في مدح الأمير محمد(٥):

يا ابن الخلائف يا محمد يا من سيفُهُ في راحة النصْر

وهناك صور اندلسية اصيلة مستوحاة من بيئة الأندلس، نحو قوله في وصف

---

(١) ابن سعيد الأندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

(٢) الكتاني: التشبيهات، ص ٢٧، وانظر: شلبي: الأصول الفنية للشعر الأندلسي، ص ٢٩٦.

(٣) الكتاني: التشبيهات، ص ١٨٣

(٤) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي) ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣

(٥) نفسه، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧

روضة(١):

تـرى وردَهـا والأقحـوانَ كـأنـه بهـا شفـةٌ لمياءُ ضـاحَكَهـا ثَغْـرُ

الى غير ذلك.

ولا يقتصر التجديد عند ابن فرناس على المعاني والصور وانما يتعدى ذلك الى البناء الداخلي والخارجي للقصيدة، فقلما نجد قصائده تلتزم الترتيب التقليدي لاجزاء قصيدة المدح من حيث البدء بالوقوف على الاطلال ووصف الرحلة الى الممدوح ووصف الراحلة وغير ذلك. ومن حيث البناء الداخلي قلما نجد اجواء الصحراء المشرقية واسماء الأماكن والنباتات والحيوانات المشرقية واسماء النساء المشرقيات وغير ذلك مما يتعلق ببيئة الشرق العربي.

ويمكن ردّ ظاهرة الخلو من الصور والايحاءات المشرقية في شعر عباس بن فرناس الى كونه ينتمي الى اصل بربري، فقد ذكر ابن سعيد الاندلسي ان ابن فرناس كان مولى من موالي بني امية في الأندلس وبيته من برابر تاكُرُنّا(٢). فلا نتوقع منه اذا ان يتمثل الشعر المشرقي كثيرا كما فعل اصحاب الاتجاه التقليدي الذين يعبرون بتمثلهم لشعر المشارقة عن تعلقهم بالأصول العربية في المشرق وعن حنينهم الى وطن الاجداد، كما هو الحال في شعر عبد الرحمن الداخل (ت ١٧٢هـ/٧٨٨م).

وفي مقابل ضعف الأثر المشرقي في شعر ابن فرناس نلاحظ قوة الأثر الأندلسي، فقد تأثر ابن فرناس بالبيئة الأندلسية تأثرا واضحا، من جهة الموضوعات والأساليب، فموضوعات وصف الطبيعة ووصف مجالس الطرب والغناء ووصف القصور والحديث عن الانتصارات الأندلسية هي الغالبة على شعره. اما من جهة اللغة والأساليب فلغة ابن فرناس رقيقة رقة الطبيعة الأندلسية، عذبة عذوبة مياهها وانهارها ونسائمها، متلونة تلون ازهارها واشجارها وسهولها وجبالها، ذات ايقاعات موسيقية كتلك التي تصدر عن طيورها المغردة وعن مجالس الطرب والعزف. وقلما نجد في هذا الشعر الفاظا غريبة او ممجوجة.

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣١٨، الضبي: بغية الملتمس، ص ٤٣١.

(٢) ابن سعيد الأندلسي: المغرب، ١/٣٣٣

ومما يلحظ في شعر عباس بن فرناس ان ثقافة الشاعر واهتماماته قد انعكست على لغته الشعرية، فنقع على الفاظ من علم النحو وعلم الكتابة والخط وعلم الفلك وغيرها، غير ان ابن فرناس لم يتكلف اقحام تلك الألفاظ في شعره من اجل استعراض قدراته ومعارفه وجوانب ثقافته ـ كما فعل كثير من المنشئين والشعراء في العصور التالية لعصر ابن فرناس ـ بل جاءت هذه الألفاظ في شعره بصورة تلقائية عفوية نتيجة انشغال الشاعر بهذه العلوم والفنون، وجاء في سياق لائق بها، وادت ابن فرناس بأنه كان شاعراً مطبوعاً(١)، واكثر ما نلقاه في شعر ابن فرناس من مصطلحات العلوم المصطلحات الفلكية، كما في الأبيات التي يمدح فيها الأمير محمد ابن عبد الرحمن ومطلعها(٢):

تحفّظ من الهجران ان كنت تقدر ... يموت الفتى في حبّه حين يُهجر

وكما في الأبيات التي يمدح فيها الأمير محمدا ويتنبأ له فيها بمزيد من الانتصارات على الأعداء، فيقول (٣):

لتطبقّن على الدنيا خلافتُه ... سماء جود لها ماء اللهى مطرُ
ويهلك الشرك في اقصى مداخله ... حتى يغيب فلا يُدرى له اثرُ
بذاك تخبرنا غرُّ النجوم كما ... أوحى اليها بذاك الشمسُ والقمرُ

وفي قصيدته التي وصف بها قصر الامارة في منية الرصافة بقرطبة تصادفنا مفردات كثيرة متصلة بالفلك، في نحو قوله(٤):

وأعرافه الشم التي لاح دونها ... نجوم الثريّا والسماكيْن والغفر(*)..
حنايا كأمثال الأهلّة رُكّبت ... على عمد تعتد في جوهر البدْر

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٧.
(٢) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٦.
(٣) نفسه، ص ١٢٤.
(٤) نفسه، ص ٢٢٨.
(*) الغفْر: منزلةٌ من منازل القمر، ثلاثة انجم صغار، وهي في الميزان (لسان العرب).

حتى في غزله بمحبوبته، يحسّ المرءُ لدى القراءة الأولى انه لغز له صلة بعلم الفلك حين يقول ابن فرناس(١):

نظر الناسُ في الهلال لفطر ... فتبدت فأفطروا اذ رأوْها
ذاك في سبعة وعشرين يوما ... فذنوب العباد طرا عليها

ومن خلال بعض التشبيهات التي استخدمها عباس بن فرناس في شعره تظهر لنا عناية ابن فرناس بالخطوط والكتابة والاملاء وعلم اللغة، ففي وصفه لكلب صيد يقول(٢):

بأغْضفٍ مُعلَّمٍ او قد عُلم ... كأن شقّ الشدْق من فيه القضمْ
كافٌ أجيدٌ مَطُّها في حُسن ضمّ....

وفي وصفه لصدغين ناعمين يقول(٣):

معقربين كنوني كاتب نُقطا ... فقابلا من مداد المسك راءين

وكان من عادة الاندلسيين نقش اشعارهم على بعض المصنوعات من السيوف والرماح والتروس والتماثيل والأقمشة، اجلالا لشعرهم وتخليدا له وتزيينا للمادة المصنوعة، واعظاما وتكريما للشخص الذي ترفع اليه هذه الهدية، وكان عباس بن فرناس من اوائل من سنّوا هذه السنة، فمن ذلك ما كتبه بالذهب الخالص على تفاحة محجولة(٤):

تفاحة مصفرّة البعض ... بخوفها من ألم العضّ

الى اخر الأبيات.

وغالباً ما يُجْعَلُ الشعرُ على لسان الهديّة التي تُرفع للممدوح او المهدي اليه، فتكون الهدية اكثر وقعا في النفس، فعندما صنع عبّاس بن فرناس الآلة المسماة

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/٦٦٨.

(٢) الكتاني: التشبيهات، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٣) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٤) ابن حيان: المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي)، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

المنقانة نقش عليها ثلاثة ابيات ورفعها للأمير محمد، وجعل الأبيات على لسان المنقانة، ومطلعها(١):

الا انني للدين خيرُ اداةِ اذا غاب عنكم وقت كلّ صلاةِ

وعلى الرّغم من قلّة الشعر الذي انتهى الينا لعباس بن فرناس، الا ان هذا الشعر يشهد بأن قائله قد نوّع في موضوعاته واغراضه تنويعا شمل معظم مجالات البيئة الأندلسية التي يعيش في ظلها، وشمل مختلف مجالات اهتمامه، كما نوّع في طرائف نظمه، فمن قصائد مطوّلات الى مقطعات تختصر موضوع القصيدة في ابيات قليلة، ومن مبالغة في بعض المعاني الى اعتدال في بعضها الآخر، ومن تجليات في التصوير الفني الى نقل حرفي تفصيلي لبعض الموصوفات، ومن مباشرة في الخطاب الى اعتماد على الايحاء والتشخيص، الى غير ذلك مما يشهد بتمكن عباس بن فرناس من ادوات الفن الشعري، وبجعله يحتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره.

(١) نفسه، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

الخاتمـــة

عباس بن فرناس نموذج فريد للانسان الاندلسي ذي العقل المبدع والاحساس المرهف، اللذين كان لهما الأثر البـارز في التراث العلمي والأدبي لهـذه الشخصية الفذة.

لم يشغله العلم عن الأدب، ولا الحكمة والفلسفة عن اللهو والطرب، ولا الانصراف الى الصناعة والابتكار عن الأخذ من متع الحياة الأندلسية، بنصيب، فقد كان مغنيا وملحنا وعازفا وشاعرا وأديباً في الوقت الذي كان فيه عالما ومفكرا وفيلسوفا وحكيما ومنجما وفلكيا ومخترعا وصانعا.

ومثلما تفوق ابن فرناس في المناحي العلمية تفوق ايضا في الأدب، فكان شاعرا متميزاً بذّ غيره من شعراء عصره، واحتل بسبب ذلك مكانة مرموقة عند ثلاثة من امراء بني امية، فكان شاعر بلاطهم الأول، وقال فيهم ولهم شعرا كثيرا، مثلما قال الشعر في شتى اغراضه التي املتها عليه بيئة الأندلس، وبرع في فنه الشعري حتى تأثر به اللاحقون من شعراء الأندلس.

وابن فرناس ليس الأخير من عباقرة هذه الأمة الذين اضافوا التفوق في الابداع الأدبي الى التفوق في مجالات العلوم المختلفة، فما برحت هذه الأمة منذ فجر تاريخها وحتى اليوم تنجب امثال هؤلاء العلماء الشعراء.

وشعر عباس بن فرناس ـ على قلة ما وصلنا منه ـ شاهد على عظمة الحضارة الأندلسية، بما يعكسه هذا الشعر من صور الابداع العقلي عند هذا الشاعر العالم ذي المواهب المتعددة.